مطبوعات ندوة "زمزم" الجُمُعِية

(20)

في أدب الرقائق

واردات وخواطر

تأليف

الأستاذ الدكتور عبد الله الشارف

جامعة القرويين - كلية أصول الدين

تقديم

فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي

مطبوعات ندوة "زمزم" الجُمُعِية

(20)

في أدب الرقائق

واردات وخواطر

تأليف

الأستاذ الدكتور عبد الله الشارف

جامعة القرويين - كلية أصول الدين

تقديم

فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي

الكتاب : في آداب الرقائق واردات وخواطر

المؤلف : عبد الله الشارف

الطبع : مطبعة تطوان

الهاتف: 34 42 70 39 5 (212)+

البريد الإلكتروني: imp.tetouan@gmail.com

رقم الإيداع القانوني: 2014MO2482

رقم الإيداع القانوني الدولي: 978-9954-34-007-3

تقديم

فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي

-1-

عرفت صاحب هذا الكتاب الأستاذ الدكتور عبد الله الشارف في شبابه الغض ينذره في طلب العلم عند شيوخه بتطوان مسقط رأسه، ثم عند شيوخه بفاس مهاجره الأول، ثم عند شيوخه بباريس مهاجره الثاني.

وقد جمع من معارف شيوخه هنا وهناك وحشد ما أغنى به حصيلة علمية استثمرها في جملة بحوث غنية أعدها بالجامعة الفرنسة، ثم أبى إلا أن يردفها بأخرى يخدم بها الدرس الفكري والعلمي في وطنه. ولما رأى ما كنت أشغل به في بعض كتاباتي الدعوية والفكرية خف إلي يسألني توجيها لموضوع من هذا القبيل يكون مدار درسه لأطروحته، فأشرت عليه بقضايا كانت مثار الجدل بين التيارات الإسلامية والعلمانية، ومنها ظاهرة الاستغراب في المغرب. فَسُرَّ لهذا الاقتراح وأعجب، وحين حدد عنوان

أطروحته بـ(الاستغراب في المغرب الأقصى: ظواهره وقضاياه) رغب إلي مرافقته في إعدادها، فلم أملك - وقد لمست فيه فهما ونباهة، وحزما وعزما - إلا أن أجيب سؤله. وقد أبان عن ذلك حين انقطع إلى أطروحته بهوى قلب العاشق، ولم يزل يعكف عليها إذا أصبح، ويعكف عليها إذا أمسى حتى امتدت بينه وبينها وشائج قربى هي أشبه شيء بما يكون من وشائج الحب المكين بين عاشقين.

وحين أطالت (عشيقته) المكوث عندي شهورا، وَشَطَّ عليه المزار كتب إلي خطابا حبره بما وسعه من وجد وهيام بها، وشوق لها وحب يستحثني على (فك أسرها) فلم أملك إلا أن أزفها له في محفة سنية بهية أرفقتها رقعة يبرق لها وجهه من السرور إذ يقرأها، أقطف منها:(...ها هي ذي (عروسك) تخف إليك سريعة الخطو، خفيفة الحركة، مشتاقة تسعى إلى مشتاق.ها هي ذي (عروسك) تعود إليك بعد أن زارت مهبط الوحي، وتزودت لها ولصاحبها من مشاهدها الجليلة بما يكون لها وله ـ إن شاء الله تعالى ـ نورا يهتديان به في رحلتهما المباركة بحثا عما ينفع الناس ويمكث في الأرض من

العلم الهادف، والأدب الباني. بارك الله لك في (عروسك) هذه ذات الجمال والدين، ونفع بك وبها، وإنا لمنتظرون منكما فيما تستقبلان من أعوامكما ذرية طيبة تخدم العلم وتنفي عنه أباطيل المغرضين).

ولم يزل الأستاذ الشارف يعكف على طلب العلم، يَتَعَلَّمُ منه ويُعَلِّمُ حتى أجيبت دعوته التي طالما رفع بها يديه يسأل ربه خدمة طلاب العلوم، وقد تم له ذلك حين جلس للتدريس والإقراء في كلتي تطوان العتيدتين الآداب والأصول، وحين عني بنشر بعناوين استلها من محتوى أطروحته مثل (أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب) و(الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر) وأخرى جال بها قلمه في بحوث فكرية وتربوية واجتماعية، منها كتابه (تجربتي الصوفية) الذي عرض في فصوله فهمه لبينة الكيان الصوفي، وكتابه في (القدوة بين الاتباع والابتداع) عالج فيه الموازنة بين شيخ العلم وشيخ التربية، وثالث في أدب الرقائق أسماه (واردات وخواطر إيمانية).

والرقائق فن من فنون القول يمتاح مما يختلج بأطواء صاحبه من مشاعر وأفكار وهواجس تتعدد وفق مرجعيته العقدية والفكرية والتربوية، وتشكل في مجموعها خطابا يتميز بمعناه الدعوي وبمبناه الأسلوبي.

ويعتبر الأصلان الكتاب والسنة مصدرا لهذا الضرب من القول البديع يُغْرَفُ من حياضهما ما يتردد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من مواضيع الإيمان وتزكية النفس بالتقوى والعمل الصالح، وكل أولائك دَوَاعٍ تقود صاحبها إلى محبة العلم وما يتلى في بيوته من آيات الله والحكمة، وإنها لبصائر يهتدي بها أهل الخير في تربيتهم وسلوكهم.

ومن هذين النبعين الصافيين نهل الصحابة والتابعون، واقتفى أثرهم واحتذى أسلوبهم في ذلك علماء الأمة الذين كانوا يستمعون القول فيتبعون أَحْسَنَه، ومنه يقبسون، ومنه يصوغون، على نور من ربهم، مواعظ ترقق القلوب وتنور النفوس.

واشتهر بكتابة الرقائق من أهل السلف الصالح أبو القاسم الحارث المحاسبي، وذلك من خلال كتبه ورسائله المشهورة مثل كتاب(الوصايا) و كتاب (الرعاية لحقوق الله) و(رسالة المسترشدين) ورسالة (التوهم)، وأبو الفرج ابن الجوزي في كتبه (صفةالصفوة) و(المدهش) و(صيدالخاطر).

وقد وقف الدكتور الشارف على ما انطوت عليه هذه النصوص من خواطر نفسية وتربوية وإيمانية، وعني في بعض أعماله بشرح رقائق لابن القيم تناول في نموذج منها تحليل مفهوم الوقت، وفي آخر تحليل مفهوم العلم. ولَمْ يفته إلى ذلك التنويهُ بالجانب البنائي في رقائق ابن الجوزي مشيدا بأسلوبها الجزل السلس.

ومن هذا التراث اغترف الباحث واستلهم من التصوف حين فزع إلى ظله واعتصم ببابه نحو ثمانية سنة يرتشف ـ على حد تعبيره ـ من رحيق المنازل والأحوال، ومن وجد وذوق ومحبة وشوق وزهد ويقين وذل وانكسار وعبودية.وكانت ثمرة هذه التجربة جملة خواطر إيمانية

ومعرفية أودعها مدونته مع خطاب تربوي روحي يريد به الظفر بالإصلاح والتزكية والاستقامة.

ولم يكتف الدكتور الشارف بتجربته هذه في كتابة الرقائق، بل يبدو أنه استمرأ الكتابة في فنها فعاد - بعد اثني عشرة سنة من كتابة رقائقه الأولى - يراودها، ولم يزل يتناهى في طلب ذلك ويلح حتى ظفر بما شاء إذ جرى قلمه بما كانت حصيلته عناوين خواطر بلغ عددها العشرات شفعها بابتهالات وأناشيد وأذكار ونحوها.

وبذلك باتت مدونة خواطر الشارف تشكل شقين: شق عِلْمُه عِلْمُ أهل التصوف أصحاب الباطن، وشق عِلْمُه عِلْمُ أهل الشرع أصحاب الظاهر. وحقا أن الشارف كتب رقائقه الأولى في ظل تجربته الصوفية بأفكارها ومعتقداتها، وكتب رقائقه الثانية في ظل الكتاب والسنة. ومع هذا وذاك يستوقف القارئ تقاطعات في موضوعات رقائق الشارف تطالعك في غير نصوص، فترى خواطر توحيد تَتَخلَّلُها نفسات صوفية، وترى خواطر تصوف تغشاها نفحات عقدية.

وأيا ما كان الأمر فإن الدكتور الشارف وقف على ما كتب أهل العلم والأدباء من واردات وخواطر. ونهل من جداولها وترسم خطى أصحابها. وحين أقول إنه كان يترسم خطى هؤلاء العلماء والأدباء فإنني أعني أخذه بمثل ما أداروا عليه في وارداتهم وخواطرهم معانيهم البانية ومبانيهم الجمالية. أما المعاني - وهي مستمدة من جوهر الدين الخالص - فبما تحمل في طياتها من مكارم أخلاق استثمروها فيما عالجوا من رقائق زخرت - على وجازتها - بفيوض الإيمان ونصوع اليقين، إلى مواعظ وحِكَمٍ يمشي صاحبها في ضوئها سويا على سراط مستقيم في القول والعمل. وأما المباني فبما كان يستهديهم في لغة رقائقهم البهية وفي صياغة أسلوبهم الأخاذ.

وإنك لهذا لا تملك وأنت تقرأ من خواطر الدكتور الشارف المُجَوَّدة إلا أن تشهد له كما شهدت ببراعته في صوغ معان زهاها الحُسْنُ بما أشرقت به من نصوص القرآن الكريم وجوامع السنة المطهرة، ومبانٍ سلس أسلوبها ورَقَّ بما كُسِيَ من جمال يحفل به القراء وتدوم له المحمدة.

هذا والله أسأل في علاه أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وينفع به مؤلفه ومحققه وقارئه، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وكتب أبو أيمن حسن الوراكلي

في دارة زمزم

ظهر يوم الثلاثاء ثاني شوال عام 1435 هـ

مدخل

جاء في لسان العرب لابن منظور؛ الرقيق نقيض الغليظ والثخين، والرقة ضد الغلظ. واستعمل أبو حنيفة الرقة في الأرض فقال: أرض رقيقة وعيش رقيق الحواشي: ناعم. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه، رجل رقيق أي ضعيف هين، ومنه الحديث: أهل اليمَن هم أرقُّ قلوبا وأقبَل للموعظة، والمراد ضد القَسوة والشدَّة، وترقّقّته الجارية؛ فتنتْه حتى رق أي ضعف صبره. والرقّة: الرحمة، ورققتُ له أرقُّ رحمتُه، ورَقَّ وجْهُه اسْتحيا، والرِّقُّ المِلكُ والعبودية، وترقيقُ الكلام؛ تحسينه، وترقّقْتَ له إذ رَقَّ له قلبك[1]

والرِّقاق أو الرقائق جمع رقيقة، تطلق في الاصطلاح على الكلام، أو الأثر الذي يُحدِث سمْعه أو قراءته رقّةً في القلب.

وقد ضمّن البخاري في صحيحه كتابا أسماه؛ "كتاب الرِّقاق"، جمع فيه الأحاديث التي تُؤثر في القلب وتُوقظ فيه مشاعر الخوف والرجاء، والزهد، وذكر الموت، ومحبة الله ورسوله، والدار الآخرة، وأحاديث متعلقة بالجنة والنار، والقبر والحشر والقيامة...

---

[1] ابن منظور : لسان العرب، ج 5، ص : 286 وما بعدها. ط. 3، دار إحياء التراث العربي 1999/1419.

والقرآن الكريم ملئ بالآيات المرتبطة بموضوع الرقائق، بما يدعو إليه من التقوى، والتبتُّل، والتهجد، والزهد، ومجاهدة النفس، والتعلق بالدار الآخرة. بل هناك سور بأكملها تتمحور حول هذا الموضوع؛ مثل سورة "ق"، التي يقول عنها سيد قطب رحمه الله: "إنها سورة رهيبة شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها وظلالها وجرس فواصلها، تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في حركاتها، وتتعقبها في سرها وجهرها وفي باطنها وظاهرها، تتعقبها برقابة الله التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد إلى الممات، إلى البعث إلى الحشر إلى الحساب..."[2]. ولهذا كان كثيرا ما يجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم محور خطبته يوم الجمعة. وإذا كان موضوع الأدب، هو الكلام المنظوم والمنثور من حيث فصاحته وبلاغته، فإن فائدته أن يمنَع صاحبَه من زلّة الجهل، وأن يروّض الأخلاق ويليِّن الطبائع، ويعين على المروءة، وينهض بالهِمَم إلى طلب المعالي والأمور الشريفة.

وأدب الرقائق قد ضرب بسهم كبير في هذا المضمار، إذ استهدف رسالة في علم النفس والأخلاق، والتربية والسلوك، لا يستطيع أن يحلِّق حول قممها سواه، وذلك بحديثه العميق والمتمتع عن شهوات

---

[2] سيد قطب : "في ظلال القرآن"، ج 6، ص : 3356/ مطابع الشروق بيروت، ط 25، 1996/1417

القلب المتنوِّعة، وأهواء النفس الظاهرة والخفيّة، ونوازع الخير والشر، وهو في كل ذلك يصدُر عن عاطفة إيمانية قوية ومشاعر حية، وتجاربَ نفسية وروحية عميقة وغنية.

إن المتأمل في أدب العرب قبل مجيء الإسلام، تستوقفه بعض النصوص والآثار المعبّرة عن أمور لها علاقة بالنفس والمَعاد، وإن كان الغالب على هذا الأدب معالجة أمور المعاش.

ولا شك أن البيئة الاجتماعية والمناخية، قد أثرت تأثيرا عميقا في نفسية الشاعر الجاهلي، الذي كثيرا ما كان يناجي السماء والنجوم، والرمال والنخيل... كما أن بقايا الحنيفية الإبراهيمية كان لها حضور نسبي في ثقافة العرب وقتئذ، حيث تجلى ذلك في بعض الحكم والأقوال والأشعار.

ومن بين نصوص الأدب الجاهلي التي لا تخلو من ارتباط بمجال الرقائق، قول الشاعر زهير بن أبي سلمى، وقد كان حليما معروفا بالورع متدينا موقنا بالبعث والحساب:

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُم لِيَخْفَى وَمهْم يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَر لِيَوْمِ الحِسَاب أو يُعَجَّلْ فَيُنقِمِ [3]

---

[3] أحمد الهاشمي : "جوار الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب"، ص : 353، دار الكتب العلمية بيروت، 1403/1983.

وقال قُسُّ بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب قاطبة، وحكيمهم، في خطبة من خطبه في سوق عكاظ: "أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج... إلى أن قال: إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعِبَرا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قسٌّ بالله قسَما لا إثم فيه أن لله دينا هو أرضى لكم، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه".

ومن آثار المخضرمين في هذا الشأن، قول الشاعر الفحل لبيد بن ربيعة:

بُلينا وما تُبلى النجومُ الطوالعُ وتبقى الديار بعدنا والمصانع

إلى أن يقول:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحُورُ رمادا بعد إذ هو ساطعُ
وما المال والأهلون إلا ودائعٌ ولابد يوما أن ترد الودائعُ

وقال أيضا:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهمْ دُوَيهيَةٌ تصفر لها الأنامل
وكل امرئ يوما سيعلم غيبَه إذا كشفتْ عند الإله الحصائل

وقد أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيم لا محالة زائل

ولِسَحْبَانِ وائلِ الخطيبِ المِصقع المُخضرم كلام ذو صلة بالرقائق؛ حيث يقول في خطبة من خطبه : "إن الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار، أيها الناس خذوا من دار ممركم لدار مقركم. ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم. ففيها حييتم ولغيرها خلقتم. إن الرجل إذا هلك قال الناس ما ترك ؟ وقالت الملائكة ما قدم ؟ قدموا بعضا يكون لكم، ولا تخلفوا كلا يكون عليكم"[4].

وعندما جاء الإسلام وأشرق نوره في الجزيرة، وخالطت بشاشته قلوب المؤمنين، وسرت روحُ الوحي في كيانهم، خشعت جوارحهم وأفئدتهم ونطقت ألسنتهم بالمعرفة والحكم. وسأقتبس من أقوالهم المشهورة ما يرتبط منها بموضوع الرقائق.

قال الخليفة أبو بكر الصديق، رضي الله عنه في خطبة له: "أين الوُضَّاء الحسنةُ وجوهُهم المعجبون بشأنهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن

---

[4] أحمد الهاشمي، المرجع السابق، ص: 380.

الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور، ألْوَحًا ألْوَحًا، النجاء النجاء"[5].

"وعن عبد الله بن عامر قال : رأيت عمر بن الخطاب أخذ تِبنة من الأرض فقال : ليتني كنتُ هذه التبنة، ليتني لم أخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أكن شيئا، ليتني كنت نسيا منسيا"[6].

و"عن ابن مسعود أنه كان يقول إذا قعد يذكر : "إنكم في ممر من الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيئ بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدّر له، فمن أعطي خيرا فالله أعطاه، ومن وقي شرا فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاء قادة. ومجالسهم زيادة (رواه الإمام أحمد)"[7].

"وعن حبيب بن عبيد أن رجلا أتى أبا الدرداء فقال له : أوصني، فقال له اذكر الله عز وجل في السراء يذكرك في الضراء، فإذا أشرفت على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير (رواه أحمد)"[8].

---

[5] جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، "صفة الصفوة"، ج 1، ص : 136، دار الكتب العلمية بيروت، 1419 هـ/1999 م.

[6] المرجع السابق، المجلد 1، ص : 148.

[7] المرجع نفسه، المجلد 1، ص : 215.

[8] " "، المجلد 1، ص : 319.

وقال هريم بن حيان لأويس القرني أوصني، فقال : "توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئا أشد عليك منهما، بينا قلبك معك ونيتك إذا هو مدبر، وبينا هو مدبر إذا هو مقبل، ولا تنظر في صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت"[9].

ومن التابعين داود الطائي، صاحب الأقوال والحكم في الزهد والرقائق؛ منها قوله : "ما أخرج الله عبدا من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشر"[10].

"وقال له رجل أوصني، فقال : عسكر الموت ينتظرونك"[11].

وقال ابن سمّاك حين مات داود الطائي : " يا أيها الناس إن أهل الدنيا تعجلوا غموم القلب وهموم النفس، وتعب الأبدان مع شدة الحساب، فالرغبة متعبة لأهلها في الدنيا والآخرة، والزهادة راحة لأهلها في الدنيا والآخرة، وإن داود الطائي نظر بقلبه إلى ما بين يديه فأعشى بصر قلبه بصر العيون، فكأنه لم يبصر ما إليه تنظرون، وكأنكم لا تبصرون ما إليه ينظر. فإنكم منه تعجبون وهو منكم يتعجب، فلما نظر إليكم راغبين مغرورين قد ذهبت على الدنيا عقولكم، وماتت من

---

9 " "، المجلد 2، ص : 34.

10 " "، المجلد 2، ص : 87.

11 " "، ص : 93.

حبها قلوبكم، وعشقتها أنفسكم، وامتدت إليها أبصاركم، استوحش الزاهد منكم لأنه كان حيا وسط موتى"[12].

وللحسن البصري رحمه الله كلام كأنه الدرر واللآلئ، حتى كان يقال : "أشبه كلام المسلمين بالأنبياء كلام الحسن البصري".

إن في ما ذكرت من النصوص، يكفي لتقديم صورة موجزة ومركزة عن موضوع الرقائق، ولا يتسع المجال لأكثر من ذلك. هذا وإن أدب الرقائق أدب خصب ومعطاء، لم تنضب عيونه على مر السنين، ففي كل قرن من قرون التاريخ الإسلامي، تبرز أعلام ونوابغ في هذا الميدان مخلفة آثارا أدبية منظومة ومنثورة، آية في الرقة والجمال والحكمة. وحسب الباحث في هذا الشأن أن يتصفح مثلا كتاب "صفة الصفوة" لابن الجوزي، وأصله كتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني، أو "سير أعلام النبلاء" للإمام الذهبي؛ حيث ترجم هؤلاء العلماء لمئات من الشخصيات الأدبية والدينية، التى دونت آثارا راقية في الزهد والرقائق.

ولقد تميزت لغة الرقائق من حيث المبنى ببلاغتها وروعتها، وجلالها وسحرها، وشدة تأثيرها في النفوس، لما اشتملت عليه من حكمة، وصدق، وحق، وجمال، ونور. كما أن ألفاظها مأنوسة في

---

[12] المرجع نفسه، 94-95.

الاستعمال، حسنة الوقع في الأذن، متآلفة ومنسجمة. والانسجام عند أهل البلاغة هو أن يأتي الناظم أو الناثر بكلام خال من التعقيد اللفظي والمعنوي، بسيطا مفهوما، دقيق الألفاظ، جليل المعنى، لا تكلف فيه، يتحدر تحدر الماء المنسجم. وهذه الأوصاف والمزايا يلمسها القارئ كثيرا في لغة الرقائق لقوة الصدق عند أصحابها، وسلامة ذوقهم، وتوقد أفكارهم. ومن حيث العبارة فإنها غالبا ما تنزع نحو الإيجاز؛ حيث يقتصر المعنى على ما هو ضروري من الألفاظ، وعلى اللفظة الواحدة بدلا من الألفاظ المتعددة المترددة على معنى واحد. وكثيرا ما يتوسل في هذه العبارات بسجع لطيف عفوي غير متكَلَّف.

كما أن القارئ عندما يتأمل أدب الرقائق، يكتشف أن كلماته ليست خرساء، وإنما هي ناطقة على الدوام. وأول رسالة تبعث بها إلى قلب قارئها؛ رسالة الصدق الوجداني، وهو صدق يعبر عن "شعور حقيقي يختلج في نفس صاحبه. فالعاطفة الصادقة تضفي الحرارة والحياة على الأثر الأدبي، وتجعل القارئ يشعر بمثل ما يشعر به الأديب. وهي تَنقل القراء إلى عوالم غير عوالمهم الواقعية، وتسري بهم إلى ملأ الرؤى التي بثها الأديب في أدبه.

وفي صدق العاطفة يكمن الفرق بين الأدب المطبوع والأدب المتكلف. أما المطبوع فيستهويك، ويمتعك، ويكسبك تجارب شعورية وفكرية جديدة. وأما المتكلف، فيزعجك، وينفرك، ويشعرك بالفتور، ولا يفيدك في شيء"[13].

لنستمع إلى الفقيه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله تعالى وهو يعبر بلغة الوجدان والعاطفة عن خوف المسلم من الوقوع في أسر الدنيا:

"لاح لهم المشتهى، فلما مدوا أيدي التناول، بان لأبصار البصائر خبط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر وصوبوا إلى الرحيل الثاني: "ياليت قومي يعلمون" (سورة يس : 26). تلمح القوم الوجود، ففهموا المقصود، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل، وشمروا للسير في سواء السبيل؛ فالناس منشغلون بالفضلات، وهم في قطع الفلوات، وعصافير الهوى في وثاق الشبكة ينتظرون الذبح"[14].

ويقول في السياق نفسه:

"اقشعرت الأرض وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار

[13] د. أحمد أبو حاقة : "البلاغة والتحليل الأدبي"، ص : 249-295، دار العلم للملايين بيروت، 1988.

[14] ابن قيم الجوزية : "الفوائد"، ص : 60، المكتبة العصرية صيدا بيروت، 2002/1422.

وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح. وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه. فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح، ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح. وكأنكم بالباب قد أغلق، وبالرهن وقد غَلِق، وبالجناح وقد علق (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، سورة الشعراء : 227)"[15].

ويقول أيضا: "اشتر نفسك اليوم؛ فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير "ذلك يوم التغابن" (سورة التغابن : 9)، "ويوم يعض الظالم على يديه" (الفرقان :27) "[16].

إن هذه النصوص الثلاثة تفيض حيوية وصدقا، كما تنطوي على عاطفة قوية يبدو معها التعبير الموحي حاملا شحنة من المعنى أوسع من نطاق أحرفه ، وتنفذ إلى أعماق النفوس، وتحركها وتحملها على مشاركة الكاتب في وجدانه. ثم إن العاطفة المشعة من كلمات هذه النصوص من نوع العواطف السامية التي تسهم في الرفع من قدر الإنسان، وتذكره بحقيقته الجوهرية المتجلية في العبودية لله وحده،

---

[15] المرجع نفسه، ص : 61-62.

[16] المرجع السابق، ص : 62.

وتخاطب فيه معاني الإنسانية ومعاني الفطرة. ومما لا شك فيه أن الفكرة السامية المشبعة بالعاطفة الصادقة الجياشة، تلك الفكرة التي تسهم في الرفع من قدر الإنسان وتنزع به نحو الرفعة والعلا، هي أجمل قيمة وأطيب صدى من الأفكار الداعية إلى التبذل والسفه، أي الأفكار التي تعكسها العواطف المنحطة التي تشد صاحبها نحو ما هو مسترذل ومستقبح.

ولا تخلو كتب الفكر والأدب قديما وحديثا من ألوان الواردات والخواطر، وكلما كان الفكر والأدب ينهلان من جوهر الدين، ويرتكزان على القرآن والسنة الصحيحة، كان فضاؤهما مجالا لورود الواردات والخواطر الإيمانية والعكس صحيح؛ أي إذا كان الفكر والأدب لا يسترشدان بالكتاب والسنة، ولا يلتزمان بقواعدهما ومبادئهما ولا يحتكمان إلى نصوصهما، تسربت إليهما الأفكار والمعاني ذات الصلة بالخواطر والواردات الشيطانية. ومثال النوع الأول؛ مؤلفات الفقه وأصوله، ورسائل العقيدة الصحيحة، وكتب الآداب وتربية النفس والأخلاق الدينية، وأشعار الجهاد والحكم والمواعظ. ومثال النوع الثاني؛ مؤلفات الفلسفة الميتافيزيقية وعلم الكلام والتصوف الفلسفي (وحدة الوجود، الحلول والاتحاد) والطرقي، والدواوين الشعرية المشتملة على بعض أنواع الهجاء أو الأمداح

الكاذبة أو الغزليات. فهذا الصنف الثاني من الفكر والأدب قلما يسلم أصحابه من الإيحاءات الشيطانية، التي تكون من وراء الخواطر والواردات الضالة والمضلة.

وإذا علمنا أن نظريات متفلسفة المسلمين وأقطاب الكلام والتصوف الفلسفي، لها علاقة وطيدة بالفكر اليوناني الوثني، وبالفكر الإشراقي والمسيحي، وبالمذاهب الفلسفية والعقائد المختلفة، التي كانت منتشرة في ربوع الشام وفارس والهند قبيل مجيء الإسلام، تبين لنا خلو هذا الفكر من الخواطر والواردات الإيمانية، وإن وجدت فهي قليلة. والخلاصة أن نوعية الخواطر والواردات مرتبطة بطبيعة المحل القابل لتنزلها وورودها، وكل إناء يرشح بما فيه. ولقد أحسن محمد بن قيم الجوزية عندما قال:"مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة. فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها."[17]

وهناك خواطر وواردات نفسية وتربوية وإيمانية، مثل ما ورد في رسالة "الأخلاق والسير في مداواة النفوس"، لأبي محمد علي بن حزم،

---

[17] محمد بن قيم الجوزية "الفوائد" دار الكتب العلمية بيروت 1996 ص 193

أو في كتاب "تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين" للراغب الأصفهاني، أو ما سطره عبد الرحمن ابن الجوزي في كتابه "صيد الخاطر"، أو ما جادت به قريحة شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة "التحفة العراقية في الأعمال القلبية"، وغيرها من رسائله، أو ما ورد في كتابي "الفوائد" و"بدائع الفوائد" لمحمد بن قيم الجوزية، إلى غير ذلك من الكتب والرسائل.

وهناك خواطر وواردات صوفية؛ وهي الأفكار والهواجس التي تلازم قلب المريد أو السالك خلال تجربته الصوفية. وهي نوعان: خواطر ملائكية وخواطر شيطانية. ويستندون في هذا التقسيم إلى الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود مرفوعا: "إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)"[18].

ولقد أفرد الصوفية لموضوع الخواطر والواردات، جزءا هاما من كتاباتهم، بل تجد لبعضهم مؤلفات ورسائل لاتعدو أن تكون مجرد خواطر شخصية مكتوبة بلغة الذوق والإشارة. والكلام الصوفي إما

---

[18] أخرجه الترمذي في جامعه

أن يكون وصفا للأحوال الداخلية المتعلقة بالسلوك الذاتي للمتصوف، أو كلاما عن الأذواق والإشراقات والحقائق العرفانية، أو صياغة للأحزاب والأوراد، أو نصوصا تعليمية وتربوية تبين طريق السلوك الصوفي والغاية من التصوف. وهذه الأصناف الأربعة من الكلام الصوفي تندرج في إطار الخواطر الشخصية للمتصوف، أو تتعلق بها تعلقا وثيقا.

ويعلل الصوفية اشتباه الخواطر بأربعة أشياء وهي: إما ضعف اليقين، أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى، أو محبة الدنيا والتماس الجاه وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس، زاعمين أن العبد الذي عصم من هذه الأشياء الأربعة، يستطيع التمييز بين الخواطر والواردات الملائكية والخواطر والواردات الشيطانية، أو بين لمة الملك ولمة الشيطان. غير أن العصمة المطلقة في هذه الأمور الأربعة لا تصح في حق العباد، اللهم إذا استثنينا الرسل والأنبياء.

ثم إن أقطاب الصوفية وأعلامهم الكبار كالحكيم الترمذي، ومحي الدين ابن عربي، وابن سبعين وغيرهم، لم يسلموا في حياتهم من الوقوع في هذه المعضلة، وإن ادعوا خلاف ذلك، وكتاباتهم المليئة بالخواطر والمكاشفات والإلهامات المختلفة، خير دليل على هذه

الحقيقة. ورغم أنهم أشاروا إلى أن المريد أو السالك أو المتصوف؛ ينبغي له أن يتثبت من مصدر الخاطر ويعرضه على الكتاب والسنة قبل أن يمضيه، فإنهم لم يلتزموا بما اشترطوه على أنفسهم، ولم يتقيدوا ببعض القواعد الصوفية التي وضعوها وبينوا فيها أن طريق التصوف مقيد بالتفقه في الدين وأصحابه مسترشدون بأثر سيد المرسلين.

يقول العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: " إن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا يثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي. وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها.. وألقته في الأسر الطويل. وكما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله، فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة.. وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها أثمرت له كل فعل جميل وملأت قلبه من الخيرات واستعملت جوارحه في الطاعات. ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك، عملت على حفظ الخواطر، فكان ذلك هو سيرها وجل عملها، وهذا نافع لصاحبه بشرطين: أحدهما ألا يترك به واجبا ولا سنة، الثاني : ألا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والخشية، فيفرغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها. وإلا فمتى عمل على

تفريغه منهما كان خاسرا... ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا على إلقاء الخواطر وإزالتها جملة، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات، فظنوها تحقيقا وفتحا رحمانيا وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالات شيطانية والميزان هو الكتاب" [19]

لكن المتصوفة الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث، أمثال بشر الحافي والفضيل بن عياض وأبي القاسم الجنيد والحارث المحاسبي وغيرهم، خلفوا أقوالا ووصايا وحكما، تدور حول الزهد والإخلاص وتزكية النفس، وأمراض القلوب وعلاجها، وأحوال القيامة والآخرة، وهي في غالبها لاتتنافى مع الكتاب والسنة، لأن التصوف في هذه المرحلة، لم يكن بعد قد تسربت إليه عناصر الفلسفة اليونانية، أو بعض المؤثرات من عقائد المسيحيين والفرس والهنود وفلسفاتهم. كما أن ظاهرة الطرقية والزوايا ونظام المشيخة وما إلى ذلك مما يتعلق بالمذهبية الصوفية، كل هذا لم يكن معروفا في تلك المرحلة. وهكذا فإن الخواطر والواردات التي بثها أولئك المتصوفة الأوائل في أحاديثهم ومواعظهم وكتاباتهم، تتميز بطابع الزهد والورع والخوف، وإخلاص العمل لله، والاستعداد ليوم الرحيل، ولا أثر فيها لفكر أفلاطوني أو فلسفة زرادشتية. ولعل الحارث المحاسبي هو خير من

---

[19] محمد بن قيم الجوزية : طريق الهجرتين وباب السعادتين دار الكتاب العربي بيروت ص222

مثل هذه المرحلة من الفكر الصوفي، وذلك من خلال كتبه ورسائله المشهورة، مثل كتاب "الوصايا"، وكتاب "الرعاية لحقوق الله"، و"رسالة المسترشدين"، ورسالة "التوهم".

هذه الخواطر والواردات والابتهالات التي أضعها اليوم بين يدي القارئ الكريم، كتبت بعضها على فترات ما بين سنتي 1982م و1988م في مدينة باريس الفرنسية، عندما كنت طالبا جامعيا أهيئ دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع. ثم فتح الله علي بتدوين الثلثين الباقيين، خلال عقدين ونصف، أي؛ ما بين سنتي 1989 و2014.

ثم إن هذه الخواطر والواردات، كانت معانيها تحضرني بطريقة فجائية، عقب لحظة تأملية في عظمة الله وجلاله، أو أثناء قراءة القرآن مصاحبة بتدبر واستحضار للوعد والوعيد، أو خلال الذكر، أو عقب السياحة الروحية في فضاء الافتقار والاعتبار والاستبصار، وما إلى ذلك من أحوال النفس وهي منجذبة إلى العالم الأخروي. وهذه الواردات والخواطر جاءت العناية بها من باب الاستئناس والتذكرة، شريطة ألا تعارض الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح. ولي في مثل هذا النوع من الكتابة أسوة حسنة في ابن الجوزي وابن تيمية وتلميذه

ابن القيم وغيرهم من العلماء الأجلاء، وهم القوم لا يشقى المتشبه بهم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ، إن التشبه بالكرام رباح

وهب أن هذا الفن من الكتابة خاص بالصوفية، فلا يعقل أن نرفض كل ما يأتي به المخالف، وإنما نقبل ما عنده من حسنات ونرد ما عنده من سيئات، وهذا عين الإنصاف وعليه درج من سلف من العلماء . وفي هذا الصدد يقول ابن تيمية : " فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة.. وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله".

"وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون أخرى ؛ كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد؛ ولهذا وجب عليهم جميعا أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يزنوا مواجيدهم ومشاهداتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله"[20].

[20] المرجع السابق ص 65

والجدير بالذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية يتحدث هنا عن المتصوفة الذين كانوا لا يؤولون نصوص الكتاب والسنة ولا يخالفونهما، بل كانوا حريصين على التقيد بهما والانضباط بأحكامهما، وإنما تصدر منهم أخطاء لغلبة الوجد، أو لنقص في العلم بالحديث، أو ما يشبه ذلك. أما ما سواهم من الحلوليين والقائلين بوحدة الوجود، أو المبتدعة من أتباع الطرق والزوايا من الذين يقدسون شيوخهم، فإن موقف ابن تيمية منهم معروف، وأقواله وانتقاداته لهم مشهورة ومبثوثة في كتبه ورسائله.

ويقول أيضا : "وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب، وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي، وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفا، وهي خيالات غير مطابقة وأوهام غير صادقة"[21]

وكتاب "المدهش" لأبي الفرج ابن الجوزي زاخر بأفكار وأقوال من جنس الخواطر والواردات الإيمانية، وبما له صلة بالزهد والرقائق، وكذا كتاباه "صفة الصفوة" و"صيد الخاطر". ولا تخلو بعض رسائل ابن تيمية وكتبه من أفكار وإشارات مماثلة، وحذا حذوهما تلميذه ابن

---

[21] المرجع نفسه ص 339

قيم الجوزية خاصة في كتابيه "مدارج السالكين" و"الفوائد". وهكذا لم يمض قرن من قرون التاريخ الإسلامي إلا وتألقت فيه كتابات متميزة لها علاقة بهذا الفن الأدبي الديني. ولا بأس من الاستشهاد بمقتطفات من بعض الكتب المشار إليها.

يقول أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه "المدهش":

"يا معدوما في الأمس، فانيا في الغد، عاجزا في الحال، من أنت حتى تغتر بسلامتك وتنسى حتفك، وأملك بين يديك وأجلك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك.. يا قلبا مشتتا قل نظيره، كم هذا الهوى؟ ولكم هوى أسيره؟ ستعرف خبرك يوم عتابي وسؤالي، وستقول عند الحساب مالي ومالي.. لو أثر فيك وعظي ومقالي لكنت لحر الحسرات على حر المقالي"[22]

وقال أيضا: " إذا هبت رياح المواعظ، أثارت من قلوب المتيقظين غيم الغم على ما سلف، وساقته إلى بلد الطبع المنحرف برعد الوعيد وبرق الخشية، فترقى دموع الأحزان من بحر قعر القلب إلى أوج الرأس، فتسيل في ميازيب الشؤون على سطوح الوجنات، فإذا أعشب السر، اهتز فرحا بالإنابة"[23]

---

[22] أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي "المدهش" بيروت 1973 ص 323

[23] نفس المرجع ص 451

وقال كذلك: "كم أسرعت فيما يؤذي دينك ودأبت؟ كم خرقت ثوب إيمانك وما رأبت؟ كم فرقت شعب قلبك وما شعبت؟ كم فاتك من خير وما اكتأبت؟ يا كاسب الخطايا بئس ما كسبت، جمعت جملة من حسناتك ثم اغتبت.. تعلم أن مولاك يراك وما تأدبت، تؤثر ما يفنى على ما يبقى، ما أصبت، تصبح تائبا فإذا أمسيت كذبت، تمشي مع اليقين فإذا قاربت انقلبت، تعمر ما لا يبقى وما يبقى خربت.."[24]

وفي كتابه "صفة الصفوة" قال هذا العالم الجليل: "رد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى إجمام القلب بقلة الخلطاء، وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، والتمس باب الحزن بدوام الفكرة، والتمس وجوه الفكرة في الخلوات، وتحرز من إبليس بمخالفة هواك، وتزين لله بالإخلاص والصدق في الأعمال، وتعرض للعفو بالحياء منه والمراقبة، واستجلب زيادة النعم بالشكر، واستدم النعم بخوف زوالها، ولا عمل كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة

---

[24] نفس المرجع ص 470

الهوى، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كرد الغضب، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغار الدنيا.. "[25]

وقال محمد بن قيم الجوزية: "من فقد أنسه بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود. ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله. ومن كان فتحه في الخلوة[26] لم يكن مزيده إلا منها. ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم، كان مزيده معهم. ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شئ استعمله، كان مزيده في خلوته ومع الناس. فأشرف الأحوال ألا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه. فكن مع مراده منك، ولا تكن مع مرادك منه"[27]

وقال أيضا: "إذا أراد القدر شخصا، بذر في أرض قلبه بذر التوفيق، ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة، ثم أقام عليه بأطوار المراقبة،

---

[25] أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي " صفة الصفوة" دار الكتب العلمية بيروت 1999 ج2 ص195

[26] ألفت انتباه القارئ إلى أن الخلوة التي يتحدث عنها محمد ابن قيم الجوزية لا علاقة لها بالخلوة الأربعينية أو غيرها من الخلوات البدعية التي يمارسها كثير من الصوفية حيث يختلون بأنفسهم في بيوت أو كهوف ويكثرون من الذكر البدعي ويخضعون لنظام تعبدي وسلوكي غريب يلزمهم بهجر واعتزال الأهل والأولاد وجميع الناس وعدم حضور صلاة الجماعة !! إلى غير ذلك من البدع والضلالات التي ترجع في أصلها إلى إيحاءات شيطانية.

[27] محمد بن قيم الجوزية "الفوائد" دار الكتب العلمية بيروت 1996 ص 50

واستخدم له حارس العلم. فإذا الزرع قائم على سوقه. وإذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، وردفه قمر العزيمة؛ أشرقت أرض القلب بنور ربها."[28]

وقال كذلك ".. وإذا عرف هذا، فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان: قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية، وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم يكونوا خالين من أصلها ولكن هممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال.

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم، وعكوفها على الله وحده، والجمعية عليه، وحفظ الخواطر والإرادات معه. وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة. ورأوا أن أيسر نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله، أحب إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فإذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أنس، أو حب، أو شوق، أو انكسار وذل، لم يستبدل به شيئا سواه البتة، إلا أن يجئ الأمر فيبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه، وإلا بادر إلى الأمر ولو ذهب الوارد"[29]

---

[28] نفس المرجع ص59

[29] نفس المرجع ص160

يتبين مما سبق ذكره، أن فن الخواطر والواردات، لم ينفرد به الصوفية كما قد يتوهم البعض، وإن كان الصوفية أكثر الناس اشتغالا به. كما أن الخواطر والواردات التي دونها غير الصوفية، أمثال العلماء المذكورين آنفا، تتميز بكونها خالية من الأفكار الشاذة المتعلقة بوحدة الوجود، أو الحلول، أو الفناء، وما إلى ذلك من الشطحات التي تزخر بها خواطر وواردات الصوفية المتفلسفة، أو صوفية الطرق والزوايا.

ومن ناحية أخرى، إذا كان البعض يحمل على هذا الفن الأدبي والديني بحجة أنه يعالج موضوعات نفسية وإيمانية "مجردة وبعيدة عن الواقع"!!، مثل موضوع أهوال القيامة والآخرة، أو موضوع المحاسبة والمراقبة وتزكية النفس، وغيرها من الموضوعات التي قد تعزل المشتغل بها عن مجتمعه وواقعه، وتصيره عضوا مشلولا غير نافع!!، فإن هذا الموقف لا يثبط عزيمة الباحث اللبيب، الذي يرى في تشذيب هذا الفن وتهذيبه وترشيده، خير مسلك للنهوض به وإعادة تأصيله في ثقافتنا الإسلامية المعاصرة، تلك الثقافة التي غدت في زمن الغربة والاستغراب، أحوج ما تكون إلى هذا النوع من الكتابة الأدبية والدينية. ذلك أن المسلمين قد أهملوا منذ زمن طويل سنة المجاهدة النفسية، وابتعدوا عن المنهج السلوكي الرباني القائم على التوحيد الصحيح وعلى تزكية النفس ومحاسبتها.

ولقد كان الصحابة والتابعون، ومن اقتفى أثرهم خلال القرون الأولى، أحرص الناس على الصبغة الربانية في السلوك والمعاملات، ومن ثم فإن أخلاقهم الحسنة قد صدرت عن تربية إسلامية متينة، مرتبطة بنور التوحيد الصحيح وبالمجاهدة النفسية الدائمة. ومع مرور السنين والعقود وتعاقب الأزمنة والقرون، أصيب المسلمون في عقيدة التوحيد، بسبب الأهواء والصراعات السياسية والاجتماعية، وظهور ألوان من الفرق والمذاهب الكلامية والفلسفية والصوفية، فخفت نور الفطرة في قلوبهم، وغدت الدولة الإسلامية جسدا بلا روح.

ولن يستقيم أمرنا بدون تصحيح عقيدة التوحيد، ولن تكون هناك عقيدة سليمة ما لم نتسلح بالعلم والتفقه في الدين من جهة، وبمجاهدة النفس وتزكيتها على طريقة السلف الصالح من جهة ثانية. لقد كان للمسلمين فيما مضى يقين ثابت وعميق يدركون به أن الله تعالى سيحاسبهم حسابا دقيقا، وسيطالبهم بمثاقيل الذر من الذنوب والمعاصي. وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأمور العظيمة ومن أهوال القيامة والحشر، إلا لزوم الطاعة والمحاسبة والمراقبة.

ولهذا السبب مال بعض العلماء إلى الكتابة في الأخلاق الإسلامية، وفي موضوع النفس وطرق تزكيتها، والعروج بها إلى عالم الصفاء الروحي، ووصف أمراض القلوب ووسائل علاجها، كما

تناولوا جوانب من الموضوعات المتعلقة بعالم الغيب والآخرة، من موت وقبر ومحشر وجنة ونار، وبسطوا القول فيها مستجيشين بذلك معاني الخوف والخشية في قلوب العباد.

وعندما نقرأ القرآن الكريم ونتصفح كتب السنة المطهرة، نجد آيات وأحاديث جمة عن القلب والإيمان والذوق، وأمرا ض النفس ودوائها. و نجد كلاما عن صمم القلب وعماه، وعن سلامته وسقمه، وعن تقواه وفجوره. وعن النفس البشرية وزكاتها وفجورها. وعن الوعد والوعيد وأهوال القيامة... وأمثال هذه المعاني. فكان من البديهي أن ينشأ ويتطور هذا الأدب الإيماني الفذ، الذي اتخذ من النفس وتهذيبها، والوصول بها إلى أسمى الدرجات، محور موضوعه ومنتهى غايته. كما غدا فن الواردات والخواطر الإيمانية، جزءا لا يتجزأ منه ومظهرا متميزا من مظاهره.

وإذا كانت هذه الرسالة المتواضعة لا ترقى بطبيعة الحال إلى مستوى كتابات أقطاب هذا الفن، فرجائي من الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها قارئها، وأن يصيب غيثها أرضا ظمأى ممحلة، فيذهب عنها الظمأ وتنبت الكلأ بإذن ربها.

حيرة وسكينة

أثر الوارد الإيماني

إذا ورد وارد إيماني قلبك، فلا تستغرب لما يحدث في باطنك، لأن الزائر الذي حل بقلبك رسول من عند الكريم، ولا يمكن لهذا الرسول أن يحل بمكان مملوء بما يتعارض مع مهمته. ومن علامات صحة الوارد؛ أن يكره إليك ما استعذبته نفسك من العوائد، وأن يمنعك من الاشتغال بكثير من أمور الدنيا، ويزيدك تعلقا بمحبوبك ويشغلك به عن غيره.

حيرة وسكينة

كثرت آمالك وتنوعت، وتجددت حاجاتك وتعددت، فضاق عليك الفضاء بما رحب وهمست إلى نفسك: يا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني كنت معدوما ولم أكن شيئا مذكورا. ثم تداركتك رياح الرحمة لما علمت ألا ملجأ منه إلا إليه، وأن الفاقات لا تسد إلا بالافتقار إليه، وأن ذكرك له يغنيك عن ذكرك لما سواه، فتلاشت آمال النفس الأمارة، وخمدت نار الحاجات والشهوات، وحلت السكينة محل الحيرة، ورجعت إلى أصلك حيث أنت الذاكر وهو المذكور وأنت العابد وهو المعبود.

حنين الروح إلى وطنها الأول

نطق لسان الحال بأمر يشير بأن لا سكون مع ما سوى الله، وأن العناية أدركت المؤمن وحالت بينه وبين الركون للسوى، وكلما مسه طائف من الشيطان ووقع في شهود النفس، تعكر صفو الحال واعتراه نوع من القلق، وشق عليه معاملة الأغيار ثم لم يلبث أن سكن ورد إلى الطمأنينة، لأن العناية شوشت عليه ذلك الركون، فلم تطمئن نفسه لغير الله، الذي هو آخذ بناصيتها، كما أن حنين الروح إلى وطنها الأول فاق كل حنين، ولا قرار لها مع غير خالقها.

فر إلى الله

لا تألف غيره لأنك مفارقه، ولا تتعلق بسواه لأنه فان. وروحك خالدة. واعلم أنك في سفر منه إليه، وقد أودعك الأمانة فضيعتها في الطريق لتزودك زاد المقيم، ونسيت أنك على سفر، فأمنت سقر، فلفحك لهيبها. فر إليه وتذكر ألفتك الأصلية، واسأل الله أن يردها إليك، وفي الحديث (اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري. وتلهمني بها رشدي وترد بها ألفتي).

الحق أبلج والباطل لجلج

اربدت الدنيا من حولك وأظلمت، وضاقت نفسك بالخطوب والفتن فاشتكت وانزعجت، ثم جهلت فوسوست؛ بدا الباطل وبطن الحق والمسلمون غثاء كغثاء السيل، فانج بنفسك في شعابِ الأودية أو أودية الخيال. كلا؛ فالحق أبلج والباطل لجلج، ومن ركب المنى أسحر وأدلج. فلا يجزعنك زبد الظلم ورعد الطغاة وبرقهم، فإنها سحابة صيف عن قريب تقشع، ويتلاشى ما كان يخاف ويفزع؛ "وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام".

بين نور الحياء ونار الاعتراض

أوجدك بعد عدم حقا، وأنطقك حين أشهدك على نفسك محبة وخيرا؛ "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى"، وخلق الكون وأقام السماوات العلا، وأمر من فيهن بتسبيحه كرما وعدلا. إن نظرت إلى كونه وخلقه بعين العدل تحققت به، واندفعت إلى فعله، وتجلى لك العدل فيما يصدر عن ربك وعلمت أنه أعدل العادلين، فأطلعك على مقامك، وألبسك نور الحياء، فأطفأ نار الاعتراض والجدال، وحل الصمت والرضا محل لم وكيف ؟ وإن كنت كليل البصر، حجبك وهمك عن رؤية العدل، وأراك الظلم مكانه، فحرمت الاستقرار وسقطت في مخالب الحيرة، وقمت كالذي يتخبطه الشيطان من المس، وحدت عن ناموس الكون مع أنك فيه، وإليه يرجع الأمر كله سبحانه ما أعدله.

حب الله يكفيك حب ما سواه

إذا أحببت اللهَ فإنك لن تستطيع أن تشغل بما سواه، وإلا شعرت بالعذاب والحيرة حتى ترد إليه. وإذا لم تشعر بذلك وقد أقبلت على غيره، فما صدقت في حبك له وكنت فقط تحت سيطرة الوهم، وحبك لغيره ينتهي بانتهائه، ويبقى الذي لا يفنى سبحانه ما أعظمه.

الأنس بالله

القصد المطلوب

صحح قصدك ولا تغفل عنه وأنت في شأن من شؤونك، واجمع مقاصدك في القصد المطلوب، فلا قصد لك إلا هو، ولا باب أنت داخل منه إلا بابه، واجعله أمام عينيك فتتوحد لك المقاصد؛ إذ شعورك بنظره إليك، وإحساسك بالخوف والحياء إحساسا تلمسه في جوارحك، يجعل مقاصدك تفنى في القصد المطلوب، فتنال المرغوب. وبالخوف تموت حظوظ النفس، فينقشع الغمام، ويخلو لك السبيل، ويصبح الحبيب جليسك؛ "أنا جليس من ذكرني".

اجعل الله أنيسك

العابدون السائحون غمرهم الحضور وتجردوا مما سواه، وإن باشروا زينة الدنيا فبه، فلا حركة ولا سكون لهم إلا به، فهم في الغرفات آمنون، كما أن أهل الجنة في نعيم، وليس يحجبهم ذلك عن التعلق بمحبوبهم ومشاهدة أنواره. اجعل الله أنيسك في الدنيا وتحقق به لعلك تكون من السابقين، وتجرد به عن غيره لأن كل ما سواه باطل[30]، واعلم أن مطالعة أهل الجنة لأنوار الله وعدم انشغالهم بنعيمه عنه متعلق بعدم انشغالهم عنه بزينة الدنيا. فاكشف غطاءك قبل أن يكشف عنك.

---

30 – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل ما خلا الله باطل" حديث صحيح رواه مسلم عن أبي هريرة . وتكملة البيت الشعري قول الشاعر : وكل نعيم لا محالة زائل.

ما ثم غير تدبيره

إلزم مكانك ولا تغادره إن كنت مقيما فيه بالله، وإلا فلا مكان لك، والعلامة ألا ترى لنفسك علامة، ودوام التوبة والإبصار حين المس، "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"، ورد ذلك إلى العناية الأزلية، واللاحقة عين السابقة "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون"، وما ثم غير تدبيره، وتدبيرك مسؤول عنه، وبما كسبت رهين.

اتخذ لنفسك مكانا شرقيا

اتخذ لنفسك مكانا شرقيا، واثبت على ذلك ولو غرب كل من حولك. والله يحجبك عن عيون الخلق. شمس بصرك تغرب لفنائها وفنائه. وشمس بصيرتك في شروق ولو عند كشف الغطاء؛ حين تشرق الأرض بنور ربها، ويرفع الحجاب وتعنو الوجوه للحي القيوم. شمس المعارف الربانية تورث الوهب، ومن صفاته الوهاب، وشمس العلوم الدنيوية تورث الكسب ومن صفاتك الكاسب، وقد أمرت أن تتخلق بأخلاقه، وأخلاقه من صفاته.

هو المدبِّر وأنت المدبَّر

إذا شق عليك أن تفكر فيما سواه وفيما لا ضرورة فيه، وقلت الخواطر أو كادت تنعدم، وألفيت باطنك ثابتا، وما وقع عليه بصرك من ظلال متحركا نحو العدم، كان ذلك من علامات اللطف. ومهما لطف بك الحق دمت محفوفا بعنايته، وكفيت التفكير في كثير من شؤونك، ولمست تحققها دون عناء منك، فهو المدبر وأنت المدبر.

كن بربك

حقق ذاتك، وانف ما ليس لك، يثبت ما هو لك. والتحلي بالتخلي والثبوت يسبقه النفي: لا إله إلا اللهُ. فتمسك بالآخرة لأن الدنيا ظل زائل، وأنت فيها قائل. وليس لما خلا اللهُ وجود بذاته، فاخلع نعليك وجاوز العتبة، واسع إليه تجدك عنده وما كنت عند غيره.

الصلاة

استعن بالصبر والصلاة

الله أكبر، الله أعظم، الله أجل. أسلم وجهك لله، واستمطر رحمته بالصبر والصلاة، واصدق الله في ركوعك وسجودك، واخضع وتذلل، واستحضر عبوديتك، تأخذك المناجاة إلى عالم يجل عن الوصف، تتفيأ في ظلاله، فترنو بعين البصيرة إلى جماله وبهائه. أعظم به من مقام، واسعد بها من لحظات مع رب ودود، مقبل بوجهه الكريم على عبده الخاشع الذليل، واعلم أن حرصك على استحضار الخشوع في صلاتك إرضاء لربك، وطمعا في نعيم القرب وحلاوة المناجاة، لن يضاهي حرصه في الإقبال عليك والاستماع إلى دعواتك. ولئن جئته تمشي أتاك هرولة.

فلك السجود

الكون محيط بك ومسخر لك، لكونك خليفة ووارثا. آيات الكون تحيلك على المكون كالعبد يطلب سيده. وقضت الربوبية بالعبودية، وسجد النجم والشجر (وكل في فلك يسبحون). وفلك السجود، فلك كل موجود لا وجود له بذاته. فإن أبيت السجود أصبحت لا فلك لك، وتهت لكونك حدت عن أصلك. وإن لم تنقض الميثاق، دمت سابحا في فلكك. ولا تخش بعد ذلك شيئا. فهو ممسك بك لأنه (يمسك السماوات والأرض أن تزولا).

ثمرة السجود

اسجد واخشع وابك وتذلل، ولا ترفع رأسك إلا في جنتك. وإذا سجدت سجود القلب، غشيتك سكينة ربانية، وألفيت حلاوة القرب والأنس، واستعذبت الطاعة. حينئذ يشق على نفسك أن تلتفت إلى ما سوى الله، فتتذلل وتخضع مع بقاء رسم البشرية، إذ لا عصمة إلا للرسل والأنبياء.

نعيم المناجاة

الحمد لله رب العالمين؛ حمدني عبدي، الرحمن الرحيم؛ أثنى علي عبدي، مالك يوم الدين مجدني عبدي. أعظم بها من لحظات ينعم فيها القلب بصدى المناجاة، ويخترق الصدى حاسة السمع الباطنية، فيخشع الكيان أمام صولة الآيات، ويصبح الحق جليسك، ومن وحشة الدنيا أنيسك. ومن أحسن من الله جليسا وأعظم منه أنيسا. طوبى لك وقد فتح الباب على مصراعيه، وأذن لك بالمثول بين يديه، فتصور المنح والعطايا من لذة الذكر ونعيم المناجاة، إلى النظر إلى وجهه يوم لقائه.

العهد والميثاق

العهد والميثاق

إن الأرواح لما خوطبت في ميثاق الذر (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)، وشهدت بأن الله ربها، لم تكن تعرف بعد سجن الأشباح ولا مشاق الأمانة؛ (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا). ولما هبطت وسجنت، ووقعت في فخ النفس، نسيت ثقل الأمانة فهلكت. ولو أنها حافظت على عهدها وميثاقها وظلت تعاين ببصيرتها ذاته، لم تغفل عن ذلك طرفة عين لهان عليها ذلك.

أنت على الفطرة

أنت على الفطرة ما دمت على العهد، وإذا خنت الأمانة أوكلك الحق إلى نفسك. وهو يحول بين المرء وقلبه. فنورك من نور الفطرة، والله يهدي لنوره من يشاء. وسلامة دينك معلقة بسلامة فطرتك. وصفاء هاته مرهون باتباعك للشريعة. فلا ترغب بنفسك عن نهج نبيك، وليكن هواك تبعا لما جاء به، ولا تتخلف عنه فيفوتك الركب ويقتلك الظمأ في فلاة.

أفكلما غزلت نقضت

ألهمك غزل الدنيا والآخرة وأبيت إلا النقض فما شكرت، ودلك على الهداية فأبصرت ثم أعرضت فما اهتديت، أفكلما غزلت نقضت؟ بئس ما فعلت. ألهمك التقوى فما زكيت، فضللت الطريق وهمت على وجهك بما دسيت. عاهدت الله في الزمن الأول وقبل الأزمان فما وفيت، وشهدت له بالربوبية فما حفظت وما التزمت؛ "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين". فيا ليت شعري هل إلى مرد من سبيل، ومن دواء للقلب العليل، ومن أمل في نعيم الجنة وظلها الظليل، رحماك رحماك، عبد لاذ بحماك.

قد أعذر من أنذر

أما تدري أن صدى (ألست بربكم) ما زال يتردد في كيانك، وأن أثر(بلى شهدنا) لن ينمحي، بل حجب عن سمعك الباطني تحت وطأة شهواتك، بعد أن زين الشيطان لك أعمالك وجعلت كلام ربك دبر أذنيك، واتخذت إلهك هواك. حذار أن تحشر مع طائفة (إنا كنا عن هذا غافلين) أو طائفة (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين)، وقد أعذر من أنذر



الجلال والجمال

إذا تجلت لك آية من آيات الحق في مظهر جمالي لم ينكشف لك جلالها فما رأيت جمالها، وما استفدت من تلك الرؤية، إذ الجمال والجلال وجهان لحقيقة واحدة. فلا رجاء دون خوف، ولا خوف دون رجاء، (وادعوه خوفا وطمعا). وجماله يذكرك بجلاله، وجلاله يذكرك بجماله. ومن ثم فإنه ما تعرف إليك بجمال إلا وهو طالب منك أن تخافه؛ (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر)، وما تعرف إليك بجلال إلا وهو طالب منك أن ترجوه.

احتم بجماله من جلاله

احتم بلطفه من قهره، واستعذ به منه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال: "أعوذ بك منك". واحذر مكره لأنه العزيز القهار ولا تأمنه، فقلبك بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء. ولا يكن تعلقك باسمه الكريم يحجبك عن ذاته، ولا تشغل بشئ عنه فتفوتك رؤيته.

لا تقف مع الحسنة

لا تقف مع الحسنة فتحجب عنه، ولا تيأس عند صدور السيئة فتسيء الظن به. ولا تكن حيث الخوف الدائم والهيمان والدهشة، وكن حيث شهود الجلال والجمال. حينئذ تفيض الحسنات عن ذاتك، ويسهل اجتناب السيئات لالتهاب نار الخشية في قلبك، (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

لا تأمن مكر الله

إذا ركبت البحر وطغت أمواجك، وتراءى لك شبح الهلاك، ثم ردتك العناية إلى البر؛ لاتظنن أن الماء لم يعد محيطا بك، واعلم ألا بر لك؛ إذ الكل بحر، والتقسيم أوجدته غفلتك، والساحل مركبك إذا لم ترفع له شراعا. وإذا رفعته غرق، (أفأمنوا مكر اللَّهِ فلا يأمن مكر اللَّهِ إلا القوم الخاسرون).

لا تكن من الغافلين

كل ما وقع عليه بصرك في الكون وما لم يقع عليه يُسَبِّحُ وَيَسبَحُ في فلك محيطه قبضة جلالية. وإذا تجلت لك أنوار الجلال وكنت في موطنه، قوي يقينك فسمعت ذلك التسبيح بسمعك الباطني، وحد بصرك بنور بصيرتك، وأحالتك آيات الكون على المكون، فشغلت بمحبوبك عما سواه، وطوي زمانك، وقصرت المسافات، وغدا الأجل عاجلا والعسير سهلا

هما جلالان

هما جلالان ظاهري وباطني؛ والأول قد يدركه قلبك بواسطة حواسك، والثاني لا تراه إلا ببصيرتك إن أمن الإدراك الأول. ويحدث الجلال الظاهري في القلب خشية قد تثبت وقد لا تثبت مع بقاء رسمك. ويحدث الثاني خشية ودهشة لا تنمحيان إلا أن يشاء اللَّهُ مع ذهاب رسمك. وفي الأصل ما ثم إلا جلال واحد والتقسيم اقتضته طبيعتك.

خوفان لا يجتمعان

خوفك منه يقهر خوفك مما سواه، ووجودك تحت سلطانه يجعل وجود ما سواه تحت سلطانك. والخوفان لا يجتمعان. والأول جوهري أصلي لتعلقه بالافتقار عين العبودية، والثاني عرضي طارئ. ويورث الأول الأمن والطمأنينة والنور، ويورث الثاني القلق والاضطراب والظلمة، (فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين)، ولو كنت مستحضرا ما كتب في اللوح المحفوظ، ما خفت سواه. فما أجهلك بربك.

خوفك منه حبلك إليه

إذا تمكن الخوف من قلبك ملكت النميين، وتحركت الجوارح بالأمر، وسكنت بالنهي، وانمحى الاعتراض لضعف قوة النفس، وتلاشى الفرح إلا برحمة الله، والحزن إلا للتقصير في العبادة، ووقعت الإجابة بالطلب أو دونه لحصول الانسجام بين ذاتك والكون ولصدق اضطرارك؛ (أمن يجيب المضطر إذا دعاه). والاضطرار إليه عين الخوف منه وحبلك الموصل إليه.

وقت محترق

مراعاة الوقت

لن تتجلى لك حقيقة ذاتك ما لم تراع وقتك، فلا تخضع لزمان لكونه فانيا، ولكون روحك لن تتغير وليست فانية، وكنزك هو الحال الذي أنت فيه، وأمسك لن يعود، وغدك ليس بحاصل، وحياتك هذه حلم، والتي بعد الموت هي الحياة؛ (يا ليتني قدمت لحياتي). روحك فهمت الخطاب خارج حجاب الزمن، واستعصى عليها استحضاره تحت وطأته. احفظ وقتك، وتحقق بالله فيه، تسطع عليك شموس المعرفة، وتحقق مراد الله من خلقك، وتفز بفرصة العمر قبل فواتها. فهو الموصل إن تحققت به، والحجاب إن غفلت عنه، وساعتك التي أنت فيها.

اجعل الوقت مطية لك

لا تكن مطية وقتك، بل اجعله مطيتك. وأحكم قبضتك على لحظاتك، فقد تهلك بين فتحة عين وغمضتها. والكل في قبضته فاحذره لأنه القهار وأطلق بصرك فيما حولك، وبصيرتك في باطنك دون أن تشغل بسواه، فتحجب عما يمكن أن تلهمه. فإن صابرت وراقبت وأحاطت بك العناية، وتم لك ذلك، رميت سلاحك وكسرت شراع سفينتك.

اختنم وقتك

لا تطرد يومك بغدك، ولا تجعل نفسك تعانق ما ليس بحاصل، أو ما لم يحن بعد وقت حصوله. وإذا لم تفعل ذلك، كنت غائبا وضيعت إمدادات وقتك، وأسأت الأدب؛ لأن اللّه لم يخلق شيئا عبثا، وآياته لم تزل تتجلى لك. ورب حضور منك يثمر علما يورثك القرب، ورب غيبة منك تثمر جهلا يورثك البعد. وإذا أنعم عليك بالقرب لم تعد تشغل بما سيأتي، لأن الذي يملك الكنز لا يعبأ بالفلس، كما أن القرب منه ينفي كل الأبعاد، فلا أثر لماضي ولا لمستقبل، ومن تعلق بجمال اللّه وأنس بنوره حضر ولن يغيب.

السفر سفران

السفر سفران؛ سفر إلى اللّه سبحانه، وسفر إلى الدنيا. والأول أبدي حقيقي، إذ الشوق لا ينقطع، وكله نعيم ظاهرا وباطنا. والثاني فاني لأنه ظل زائل، أو حياة عشية، ووهمي لعدم وجوده؛ إنما هي أضغاث أحلام تتبين عند كشف الغطاء؛ "فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد". فلم يصح إلا السفر الأول. وأما الثاني فوهم وخيال عند المتوهمين، ومرحلة في السفر الأول عند المؤمنين الموقنين.

سفينة الإخلاص

احذر ريح الشرك

لا تجعل قلبك يسكن إلى علم وإن سما، أو عبادة وإن جلت، ولا تنسب ذلك إلى نفسك فتعصف بك ريح الشرك، وانسب إليه ما وصل منه إليك تكن شاكرا. وإن لم تفعل، استهوت نفسك ذلك، وتعلقت به وذلك عين المكر؛ لأن المرء لايبعث إلا على ما مات عليه. والزم الخشية قلبك؛ لأن الله قد جعل التخويف أمنة من الأخذ بالمفاجأة وسببا للرحمة؛ (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون). والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

لا تكن عبد الحظوظ

تدارك أمرك إذا فاتك حظ وبدا أساك، فإن قدمك ليست ثابتة. والحق يثبت وهو الحظ فاقرع بابه. كل الحظوظ مسطرة في اللوح المحفوظ، وانتقالك بينها عين القدرة، ويمحو الله ما يشاء ويثبت. خذ كتابك بيمينك، واثبت على الصراط المستقيم، وصابر وراقب وحاسب، واجمع آمالك فيه، ملكت الحظوظ أو فاتتك. ثم انظر واختبر؛ فإن حزنت نفسك لفوات حظ، أو انبسطت لحصوله حتى أساءت الأدب، فما صحت طمأنينتها. وإن استوى عندها الحصول والفوات فقد تحقق لها المراد.

القربان

قرب نفسك قربانا ليتم البيع (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) ثم انظر هل بقيت نفسك معك أم فارقتك، فإن كانت الأولى لم يتقبل قربانك، وإن كانت الثانية فأبشر لتمام البيع. واعلم أن بينك وبين الفلاح صبر ساعة، وصدق لحظة، وخشوع في صلاة؛ "قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون".

اتبع ولا تبتدع

اعتزلهم وما يعبدون، واصعد جبل الرحمة، وادخل كهف الحكمة؛ تسطع عليك أنوار الشريعة، فتحسن إلى نفسك وترد الوديعة. ولا تفصل بين الشريعة والحقيقة؛ فالحق واحد لا يتجزأ. ودع عنك خيالات القوم وشطحاتهم وهيمانهم، وتغنيهم بحقيقتهم؛ (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

لا تكن عبد الحال وكن عبد الله

لا تطلب منه الكرامات، ولا تتعلق بالكشف، فتحجب عنه وتحرم عين الرضا، فتكون كأحد المقربين؛ أهدى إليه ملك هدية فشغلته عن رؤية الملك وخدمته، فطرد من الحاشية. ولن يحبك الله ما لم تزهد في الدنيا وفي الحديث: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس). واعلم أن طلب الأحوال والمقامات قدح في الإخلاص، فلا تكن عبد الحال لأنه لا يدوم، وإن دام فهو حجاب. وكن عبد الله ترفع عنك الحجب.

اجعل الصدق مقامك لا مقالك

إذا طرقت بابه وقيل لك ارجع، فما صحت نيتك، وما طهرت سريرتك. ولو صدقت الله، لخُرِقَت حجب نفسك، ولفتح لك الباب. فاغسل قلبك بماء الصدق، وأحيه برحيق الإخلاص، فرب صدق لحظة خير من عبادة سنة. واجعل الصدق مقامك لامقالك، لأن الله ينظر إلى قلبك. فلا تشغل عنه بالدنيا وتدعي محبته، وإلا فما استحييت منه وما صدقت في افتقارك إليه، وقد طبع على قلبك وأنت لا تشعر[31]

[31] "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركن ولكن ينظر إلى قلوبكم" (رواه مسلم عن أبي هريرة)

نعيم الذكر

لذة الذكر

لا تعبده على رسم التكليف، مجردا عن المحبة والتزليف. فغاية العبادة رؤيته، ولذة القلب ذكره، وما تلذذ أهل الجنة بأعظم من تلذذهم برؤيته وذكره إذ: "يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس". فأصل محبته في قلبك، واذكره على كل أحوالك، واعلم ألا طعم للجنة إلا بذكره ورؤيته، وأن حقيقة العبودية في تأمله جل جلاله، وعكوف القلب عليه، وعند كشف الغطاء يفرح المؤمن باللقاء .

كمال عقلك في كمال ذكرك

كمال عقلك في كمال ذكرك: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون اللَّهَ قياما وقعودا وعلى جنوبهم"، ونقصان عقلك من نقصان ذكرك: "لا يذكرون اللَّهَ إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء". فثلث عقلك في الذكر قائما، والثلث الثاني في الذكر قاعدا والثلث الأخير في الذكر عل جنبك. فارتع في رياض الذكر تلهم أنفاسه وتمنح أسراره، ف "أهل الجنة يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس"، واحذر الغفلة كي لا تضيق أنفاسك ويختنق صدرك ولات حين مناص.

إذا استغرق الذكر كيانك

إذا سكت لسان فمك عن الدنيا ونطق لسان قلبك بالآخرة، وتجوهرت نفسك بالذكر حتى استغرق كيانك، واستمعت إلى لغته العذبة بسمعك الباطني، وحصل لك الهيام بالتهليل والتسبيح، وصرت كأنك مجذوب وما بك جذب، فاعلم أن الله قد فتح في قلبك نافذة تطل منها على جنة الذكر، وأن أهل الجنة، جعلني الله وإياك منهم، "يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس"، وأن ذكرك يوقد من شجرة الإيمان تكاد أغصانها تتلألأ نورا ولو سكت لسان قلبك ساعة.

لابد لك من ذكره

يا عبد الله لا بد لك من ذكر ربك، في يومك وغدك، ودنياك وآخرتك.

يا عبد الله إذا ذكرته، ستذكره في جنتك، تحت ظلال أشجارك، وعلى ضفاف أنهارك، وبين حور عينك ونسائك. يا عبد الله شتان بين ذكرك له مع أنفاسك، وذكرك له مع زفراتك وآهاتك. وشتان بين ذكرك: يا حبيبي اشتقت لرؤيتك فإذا مركب بجانبك يحملك إلى مولاك، وبين ذكرك: "يا مالك ليقض علينا ربك". فالبدار البدار والتوبة التوبة، وما أراك تطيق رؤية مالك.

الذكر إرادتك

لم يجر الذكر على لسانك إلا وهو يريدك لحضرته، وإذا أرادك لذلك كنت في حفظه، وكان الذكر حرما آمنا لك، وأمست نار نفسك خامدة، وملكك مالك الملك زمامها، ألا ترى أنها تستسهل الأمر الصعب إذا حل بها حالة الذكر في حين تستثقل أمرا هينا ولا تطيقه في حالة الغفلة. اصرف همك إليه واذكره مع أنفاسك لأنه لا يغفل عنك طرفة عين. وإذا حصل لك الأنس به وألفيت حلاوة الذكر، دل ذلك على الرضا، فقد جاء في الحديث القدسي "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني".

ذكرك له شرط ذكره لك

يا ابن آدم : لم يأت عليك حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا، ثم غدوت مذكورا، أو ليس من الشكر والإحسان أن تذكر من صيرك مذكورا، وباهى بك الملائكة وأسجدهم لك؟ لقد أنساك الشيطان ذكر ربك حسدا لما علم ذكر الخالق لك. فهو يطوف بك ويغويك وأنت لاتتذكر ولا تبصر حذار أن يصدق عليك قول الله (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون). وحري بك إن أنت ظلمت نفسك أن تذكره وتستغفره، فيكشف عنك ما ظلمت به نفسك. واعلم أن ذكرك له شرط ذكره لك؛ (فاذكروني أذكركم)، وحبلك الموصل إليه. وأنك بالذكر موجود وبعدمه معدوم. وإنك بالبيان صرت إنسانا، (خلق الإنسان علمه البيان) وحياة قلبك بالذكرى، (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين). وتجنب من أعينهم في غطاء عن ذكره، كي لا تعمى بصيرتك. واعلم أن أجل أوصافك وصف العبودية، فأنت عبد الله بالذكر، وعبد الهوى بالغفلة، والسجين المعذب بالإعراض؛ (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا). فعليك بذكر التسبيح والتهليل، وذكر الدعاء والثناء، وذكر التفكر والتدبر والتفقه، وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم عليك بالحسنات لأنهن (يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين).

الخطب الآخرة

اختر ما يبقى على ما يفنى

الحق ناظر إلى قلبك، ويقلبه، ويرفعك به ويخفضك، ولك ما نويت. رب عمل خلته جليلا وقد أبعدك. ورب عمل حجب عن نفسك فلم تعره أي بال وقد قربك. ما طلب قط صورتك وما نظر إليها إذ هي فانية، بالصورة أنت مع نفسك، وإن تحققت بقلبك كان معك. واختر ما يبقى على ما يفنى، ورد الفرع إلى أصله والأمانة إلى أهلها، (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).

تفكر في آيات الله

لست من عالم الشهادة وإن كنت جزءا منه، ولا صلة لك بعالم الآخرة مع ألا شهادة دون الآخرة. واعلم أنك حجبت عن عالم الشهادة لما لم تدلك مخلوقاته على خالقه، وحجبت عن عالم الآخرة لما تعطلت حواسك؛ (لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها)، وعكفت على مرآة خيالك. فعليك بإصلاح الحواس وكسر المرآة كي تنجلي لك حقيقتك، وينكشف الغطاء، فتلتحم الشهادة بالآخرة والسماء.

لا تحجبه بالمحسوس

ظاهرك من عالم الشهادة، وباطنك من عالم الغيب، وما بينك وبين العالمين كما بين السماء والأرض أو أبعد، والعلة حجاب نفسك الحجاب. فلو خرقت هذا الحجاب، لبدت لك أسرار وحقائق من عالم الشهادة، ولارتحلت بقلبك إلى عالم الغيب والآخرة ، ولغدوت من الذين يؤمنون بالغيب ويوقنون به. ونسبة عالم الشهادة إلى عالم الغيب، كنسبة قطرة إلى ماء بحرها.فعالم الشهادة معدوم، وعالم الغيب موجود، والشهادة حبة رمل في بيداء الغيب.

أزف الرحيل

أزف الرحيل، ودنت الدار وتقارب الزمان موشكا على التوقف. وكأني بك تتحسس نعيم الجنة أو قيظ جهنم، أو تعاين الناس وقد غادروا قبورهم وأفئدتهم هواء. ثم وضع الكتاب، ونصب الميزان، وتطايرت الصحف... الله الله يا عبد الله، كأن هذا قد حصل. ولا مفر منه فقد حصل؛ فقد رأى نبيك في معراجه نعيم الجنة وعذاب النار فانظر إليهما بعينيه الكريمتين، وإلا فأنت أعشى سكران.

صدرك لا يسع قلبين

يا عابر القنطرة : أنت مستخلف في الدنيا وجعلتها همك، وتشكو عذابها ولا كاشف لما أملك، أما تدري أن صدرك لا يسع قلبين (ما جعل اللّٰه رجل من قلبين في جوفه)، ولا ينوء بحمل همين؟ وأن الهموم إذا تشعبت أوهنت، وإذا توحدت فيما خلقت له أسعدت وأشرقت، وأنبتت من كل زوج بهيج، فيا حبذا الأريج؛ أبشر بها من ريح طيبة تخالج صدرك، وتوقظ عزمك، وتطرد همك، وتستبدله بهم الآخرة، "وللآخرة خير لك من الأولى". واعلم أن هموم الدنيا لا تزول إلا بالعمل للآخرة، وأنك إن بعت دنياك بآخرتك ربحتهما جميعا. فاضرب هموم الدنيا بهم الآخرة، تسعد في الدارين وتأمن سخط اللّٰه يوم يبعث الثقلين.

فر من عذابه إلى نعيمه

تجنب شجرة الزقوم، والحميم والسموم، وتذكر سكرات الموت وبلوغ الروح الحلقوم، ولوعة الفراق ووطأته، وظلمة القبر ووحشته، وهول الموقف وشدته. واستحضر نعيم الجنة وجمالها، وانسياب أنهارها وعيونها، وطواف غلمانها وولدانها، وتربع أهلها على سرر متقابلين، وتلذذهم برؤية رب العالمين. عساك تحظى بما يوقظ قلبك، ويشغل همك ويقوي عزمك. ولن تشقى بعدها أبدا، بلى وقد صرت حرا وللرحمان عبدا.

أنعم بها من تذكرة

مالي وللفاني، قد ملأ قلبي بالأماني، وفي بحر الغفلة رماني، أريد أن أحيا طليقا، عاشقا للسبع المثاني، ليس لي بد من خالقي؛ اهرع إليه في كل حين، يكلأني ويرعاني، وبالذكر قد حباني، سألته الزهد في الدنيا لأنه منبع اليقين، والكنز الذي لا يفنى، وطريق التمكين، ومصدر العلم والتقوى، وحلية المصطفى الأمين، وأساس العلم والإرادة ومفتاح باب السعادة، وسبيل التفكير في الآخرة، فأنعم بها من تذكرة.

اطلب حرث الآخرة

صم عن دنياك كي تفطر على آخرتك، واسأل الله أن يجعل شهواتك بردا وسلاما على قلبك، وأن يرسل عليه رياح الرحمة، فتثير سحائب اللطف، فيمطر بها أرض النفس الأمارة، فتهتز وتنبت من كل فعل جميل وخلق سني. (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه).

تحل بالخشوع

إذا أدركته لم يغنك شيء، وإذا فاتك لم تدرك شيئا. واعلم أن العلم بلا خشية كالصلاة بلا خشوع، وأن العبادة بلا طعم كالبكاء بلا دموع. واعلم أن الموت أقرب إليك من حبل الوريد، وأن الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها. فأين أنت منها ومن الوعد والوعيد، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض، ومن يفنى ويعيد؟

بين روحي ونفسي

الطائف النفسي

إذا خطر ببالك خاطر نفسي أو شيطاني وطردته في الحال، نور الله سريرتك؛ "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون". وأبدلك به واردا إيمانيا تجد أثره في قلبك وكيانك، فتشعر بانتقالك من الظلمة إلى النور، ومن الضيق إلى السعة، ومن الأسر إلى العتق، وكأن مالك الملك ملكك زمام نفسك، فاحمد الله واثبت ولا تغتر لأنه مقلب القلوب سبحانه ما أعزه.

اختر خير الطلبين

الطلب طلبان : طلب بالاستعداد، وطلب بالنفس، والأول في حضور والثاني في غياب، وحضورك في الأول ينجلي في كونك تتأدب، ولا تطلب منه إلا ما يمليه عليك استعدادك، وقد هيأت باطنك لقبول ما يورده عليك. ثم إن الإجابة قد تحصل دون التلفظ بالسؤال، لكون حصولها وقع بالاستعداد ولو بغير شعور منك. إذ من أصعب الأمور تحقق المؤمن باستعداده في كل وقت. وغيابك في الثاني هو وقوعك في أسر النفس الأمارة، وطلبك منه ما لا يرضاه لك، أو ما لست أهلا له، وليس من استعدادك، أو استعجالك الجواب؛ (خلق الإنسان من عجل)، ولما يحن استعدادك لقبوله، إذ أنك لا تنال إلا ما ينطق به استعدادك.

بين زمن روحك وزمن نفسك

إذا تدبرت وعيد الله بصدق ويقين، انبعثت من قلبك نيران الخشية، فأحرق لهيبها حجب الهوى والغفلة، فاتسعت دائرة عقلك، وأضحى زمانك في قبضتك، وصرت حاضرا بعد أن كنت غائبا بنفسك الأمارة عن نفسك اللوامة. وإذا كنت أسيرا في قبضة شهواتك، فكرت بنفسك الأمارة، وكنت في ظلمات بعضها فوق بعض، لا ترى وعيناك مفتوحتان، وضاق زمن روحك، واتسع زمن نفسك. وقد تغيب بنفسك عن روحك، فيغمى عليك إلى أن تفيق في قبرك.

العقل المقيد

زمانك فصلك عن حقيقتك، وأخضع عقلك لمحسوساتك، فشق عليك أن تعقل ما لاتلمسه، وإن عقلته فلا أثر. فإن رمت الحق وجب كسر قيد العقل المقيد، لأن الأول (وسع كرسيه السماوات والأرض)، لا محدود، والثاني قيدته التجربة والنفس الأمارة. ولن نسطع عليك أنوار الحق، ما لم تتبرأ من القيد وتكسره، إذ نوره لا يرى إلا بنوره، (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)، (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور). وإيمانك به هو الذي زينه في قلبك (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم). فلا تعبده بنفسك، إذ عبادتك له رحمة منه، وقد تعرف إليك قبل أن تعرفه، وبه عرفته سبحانه ما أجوده.

البارق الإيماني

أحدث كوة في غشاوة قلبك، يتسلل منها بارق إيماني يضيئ ما ادلهم من ليل غفلتك. واعلم أن البوارق الإيمانية لا تفتأ متجهة نحو قلبك، ولولا الران، "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون"، لرأيت عجبا. واعلم أن فتحك للكوة يستلزم اعتبارا واستبصارا وافتقارا. أو زهدا وعزوفا. أو توبة نصوحا. بعدها تطوف البوارق الإيمانية بجوانب قلبك، كما تطوف الحور العين بجوانب خيمتك. فاجمع بين الطوافين، وما ثم غير طواف واحد.

زلزل أرض نفسك

زلزل أرض نفسك، وأخرج منها أحقادها وأمراضها، وخلصها من غفلتها، قبل أن تقوم قيامتها، فترى هولها وتصرخ: "يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه". يا ليتني كنت ذرة في الفضاء. ... كلا؛ لترين ما تنفطر له الأكباد، وتنهد الجبال والأوتاد. "وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما".

ملكتك نفسي

ملكتك نفسي، وكيف لي أن أملكك مالا أملك ؟ بل هي وديعة، غدت عندي معيبة. أخشى أن تسترجعها ولما أصلحها. رحماك ربي؛ تول تزكيتها قبل فوات الأوان، أو هجوم الموت وبلوغ الروح الحلقوم؛ "حتى إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون".

نظرة الروح ونظرة النفس

روحك ثابتة وخالدة لكونها من النفخة، وساعة نفسك متغيرة. والمتعلقة بروحك ثابتة. إن نظرت بنفسك شاهدت التغير وأسرت، وإن نظرت بروحك أبصرت الثبات وأعرضت عن انعكاسات اللحظة وظلها. والمتغير ظل الثابت. والأول فان والثاني أبدي. وحياتك الدنيوية ظل لتغيرها وعجلتها. ومد الظل وقبضه أسرع من ساعة. وأمر ربك في وجوده كلمح بالبصر.

اختبر نفسك

إذا اعترضت محابه سبيل محابك، فانزعجت نفسك واستعجلت هواها، فاعلم أنها كاذبة إذ المحب للحبيب مطيع. ولو أنها استجابت لأوامر ربها و سارعت إلى مرضاته؛ "وعجلت إليك ربي لترضى"، لظفرت بحلاوة إيمانية عظيمة ولذاقت لذة روحية زهدتها في سائر اللذات ولله في خلقه شؤون .

اختر خير الخاطرين

الخاطر خاطران : شيطاني وملائكي. والأول وهمي مجاله النفس الأمارة : (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا). والثاني حقيقي مجاله النفس المطمئنة. وإذا كنت في قبضة الأول، أنهكك الاختيار وتلاعبت بك الخواطر. وإن كنت في حضرة الثاني، نطقت عن استعدادك وتحققت بوقتك، وانطفأت نار الاختيار وأصبت ببرد التسليم، ويكون الحق سبحانه سمعك وبصرك، وفي الحديث القدسي (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلاه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت ولا بد له منه، وأنا أكره مساءته).

آثر الآخرة

إذا تمثلت حقيقة الزهد، وارتويت من معينها، وأحسست بروحها تسري في كيانك، ضاق زمن نفسك، وانحسرت الخواطر الشيطانية، واتسع زمن روحك، وتدفقت الخواطر الإيمانية، وعزفت نفسك عن الدنيا وتعلقت بالآخرة، وإلا فما تمثلت وما ارتويت وما أحسست، وإنما هي أوهام وضرب في حديد بارد. وشتان ما بين الزهد والتزهد، وما بين الحقيقة والدعوى.

شرف العبودية

لا بد لك من معبود

انظر إلى الممكنات باعتبار ضرورتها، وانظر إلى الواجب بذاته باعتبار كماله. ولا تعامل الضروري بأحسن أو بنفس معاملتك للكمالي فتجلب غضب الله عليك، لأن الكمال لله وحده فنزهه، واجعله نصب عينيك. واعلم أن تقديسك الكمال جزء من فطرتك. وأنت إن لم تكن ترى ذلك في خالقك، رأيته فيما توهمه لك نفسك. واعلم أنه لا بد لك من معبود فليكن الله، وإلا عبدت هواك ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾.

أشرف أحوالك حال العبودية

تعلق بالعزيز لذلتك، تشرق عليك أنوار المؤمن. فإن ذا الكبرياء صلى وأثنى عليك لذلتك، وكبرياؤه لا تنازعه فيه وقد اقتضى عبوديتك، وأسرى سبحانه بحبيبه وأسماه عبدا. فأشرف أحوالك حال العبودية؛ إذ عزتك في تذللك، والأشياء في أضدادها. وأحسن أوقاتك وقت تجلي فاقتك بعد كمونها، واستحضارك لجلاله بعد غفلتك عنه بسوء معاملتك لآيات جماله. ومن ثم فإياك أن تشهد جماله بغير جلاله، وجلاله بغير جماله، أو أن تجعل له شريكا وهو لا يغفر أن يشرك به.

كن موصولا بالحق

إذا رمت التلذذ بشئ فلم تظفر بلذة، أو كان حظك ضعيفا، أو كطيف لم يلبث أن توارى، فاعلم أنك لم تكن موصولا بالحق وأن حبلك منقطع. واعلم أن لا تلذذ في الحقيقة إلا ما كان مع الذكر والقرب والحضور، وأن لذة الغفلة والبعد أماني وسراب وغرور، فاظفر بالأصل تنعم به وبالفرع، وإلا فلا أصل ولا فرع، وإنما ضرب في حديد بارد.

لا تعطل حواسك

تأمل ضخامة المكان؛ (إن في خلق السماوات والأرض)، وعظمة الزمان؛ (واختلاف الليل والنهار)، تحظ باللب والعقل واليقين؛ (لآيات لأولي الألباب)، وتتحل بأوصاف الذاكرين الواصلين؛ (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم)، وإلا فلا مكان لك ولا زمان، ولا ذكر ولا فكر، ولا اعتبار ولا استبصار، ووجودك عدم، وحياتك موت، وحواسك لا تستجيب؛ (صم بكم عمي فهم لا يعقلون).

احتقر ما عند الله

اجعل دنياك بين صلاتك وذكرك؛ (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)، تتحقق بعبوديتك لله، وإلا كنت عبد اللهو والتجارة، فحرمت الحياة الطيبة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. واعلم أن عبوديتك لله نعيم وبقاء، وأن عبادتك للدنيا شقاء وفناء، أو هشيم (تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا).

أولياء الله

إن لله عبادا أولياء وصالحين، أودعهم أسرارا واصطنعهم لنفسه، وأيدهم بروح منه، يسيحون ويجولون، يحملون نور الهداية كالرياح اللواقح. إن كنت على نور من ربك، اقتبست من نورهم. وإلا فقد ضرب بينك وبينهم بسور، وحجبوا عنك. ويكون سور نفسك أشد من سد ذي القرنين لا يندك إلا بوعد ربه. ولن تراه إلا كشفا فيشملك النور، أو عند كشف الغطاء فتفترسك الحسرة.

التقوى نجاتي

نجاتك في سلامة مركبك

جسدك مركب لروحك، إن سلم من الخرق نجا من الغرق، وعانقت روحك الساحل الأبدي، وإلا كسرته أمواج الغواية، وقذفت بأشلائه. وصلاح مركبك معلق بسلامة حواسك؛ إذ بها يحصل العروج، وعليها يتوقف السفر ولن تعبد الله ولن تشاهد آياته، ما لم تستقم جوارحك وما لم يخشع قلبك (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

لباس التقوى

لباس التقوى جمالك، فلا تترك الشيطان يسلبك إياه، فتفقد كرامة الاستخلاف، ثم يجردك عن إنسانيتك، ويزج بك في حمأة البهيمية، فيتحقق مراده فيك، ويسخر منك هو وقبيله. ولو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره، ولو شمرت فكرك فيما خلقت له، لما اشتد حرصك على الدنيا، ولما أتعبت نفسك فيما سيفنى.

إني مهاجر إلى ربي

اعتزلهم ودنياهم، تظفر بوهب قد لا يخطر على بالك؛ "فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا". واهجر رسومهم وعوائدهم. ولا تركن إلى مساكنهم. وإذا عز عليك مفارقتهم، فعاشرهم بظاهرك، وافتح قلبك لربك، ولسان حالك: "إني مهاجر إلى ربي سيهدين".

ابتغ إليه الوسيلة

لن تدرك ذاته ولو تجردت مما سواه، وذاتك وجدت بعد أن لم تكن فهي مفتقرة. وذاته كانت ولم تزل. وأنى لذات مفتقرة أن تدرك من لا يحده الزمان والمكان، بل خلقهما. فتعلق بصفاته، وتخلق بها، تشرق عليك أنواره. واعلم أنك لن تعبده ما لم ترتكز على أمر معنوي كالصلاة والذكر، أو محسوس كالبر بالوالدين والإحسان إلى الخلق. فابتغ إليه الوسيلة، ولا وسيلة لك إلا التقوى، والتقوى أن يجدك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك.

اتخذ تقوى الله تجارة

خسر بيعك وبارت تجارتك، واستحالت سرابا. وأقفرت جنتك، ولما تنبت شيئا. وما زلت تلهث حتى بلغ منك الجهد مبلغه، وتقطعت أوصالك، ونسيت أن "اليوم الرهان وغدا السباق والجنة الغاية" وأن "من في الدنيا ضيف وما في يده عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة". فاتخذ تقوى اللَّهُ تجارة تأتك الأرباح وتحمد البضاعة. وحينئذ تلين الجوارح وتخشع، وتستخشن الجنوب ليونة المضجع، ويسجد القلب، ويهجم اليقين، فتندحر جيوش النفس الأمارة، وتغدو الآخرة أقرب إليك من حبل الوريد.

عليك بطعم الإيمان

إذا ظفرت بحلاوة الإيمان، فارعها وذد عن حوضها، ولا تترك سبع شهواتك يلغ فيها، فتنقلب مرارة وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. واعلم أن طعم الإيمان لا يجتمع وسم الشهوات، كما لا يجتمع الإخلاص والرياء، ولا التوحيد والشرك، ولا العلم والجهل. ومن رام الجمع بين المتناقضين كان كالقابض على الماء.

طوبى للغرباء

اجعل التقوى زادك والمراقبة عضدك، واحرص على استحضار الخشية في قلبك، وانبذ ما علق به من أدران، وايأس مما في أيدي الخلق يقربك الخالق، وإذا قربك فقد اجتباك، وما ذلك على الله بعزيز. ومهما هان عليك شأن الخلق نجوت من الغرق، وركبت السفينة، وتبدد شبح الرياء. وإذا سلكت سبيل المجاهدة أعطيت دليل الهداية، ومن قرع الباب فتح له. والانسان خلق للعبادة، فإن مال عنها مال عن أصله، وأصبح غريبا عنه وذلك عين التيه. احذر أن تكون غريبا عن أصلك وفطرتك، واحرص على أن تكون غريبا في الدنيا تفز بسعادة الدارين، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بدأ الإسلام غريبا ويعود غريبا فطوبى للغرباء".

شرف العلم

ليكن مطلبك الفرقان

شرف العلم على قدر معلومه. والعلم علمان: علم تطلبه، وعلم يطلبك. والأول كسبي لا يخلو السعي وراءه من عناء، ولا تخلو طريقه من العثرات. وقد لا يشفي الغليل. والثاني وهبي (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللّٰه يجعل لكم فرقانا)، وطريقه مجاهدة النفس، ومحاسبتها، وثمرته الطمأنينة، لأنك قصدت معلومك وهو اللّٰه، بما يجب أن يقصد به (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).

سد باب الخواطر الباطلة

إذا صح إيمانك بالحق سبحانه، رأيت الحق والعدل في كل شيء، وانتفى الباطل من باطنك ومن الوجود. وآخر باب أنت مطالب بسده؛ باب الخواطر الباطلة. وإذا لم تفعل كنت على خطر؛ والتبس عليك الأمر؛ وفاتتك لذة القرب وأنت لا تشعر. واعلم أن المجاهدة خير لك من الانسياق مع الخواطر الباطلة، وأن القناعة من اللّٰه حرمان.

اقرأ كتابك

أنت الكتاب والقارئ والمقروء والشاهد والمشهود، وحامل الأمانة والمكلف بالخلافة، وكلك آذان وألسنة. وبك تخبر عنك. وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. ركز أحوالك، واستمع لتسبيح ذاتك، وصحح كتابك قبل أن ينشر؛ وتنطق جلودك فيخرس لسانك ويحد بصرك ولات حين مناص.

تحرر من شهواتك

لا عذر لك

لا قلب لك، لا سمع لك، لابصر لك فأنى لك بالخشوع، وأنى لك بالإنابة. بل كيف يتجافى جنبك عن مضجعك. هيهات هيهات؛ أتروم الظفر بحلاوة الإيمان ولما تنفطم نفسك عن شهواتك. كيف بك وقد كشف عنك غطاؤك وأنت على هذه الحال. لا عذر لك يا ابن آدم، فيداك أوكتا وفوك نفخ.

نحن أقرب إليك

نحن أقرب إليك من حبل الوريد، والمنادي ينادي من مكان قريب، ونداؤه لم يطرق باطن أذنيك لأنك ممن لهم "آذان لا يسمعون بها" ، فاقتصر سمعك على ظاهرك وحجب عنك باطنك حيث فطرتك، وفقدت حاستك السمعية جوهرها فلا إلهام ولا نور، واختفى صوت المنادي ليزعجك بعد حين.

انتصر على نفسك

اقتحم حصن النفس تفز بالكنز؛ (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)، واطرد جيش النحس؛ الشيطان وجنوده، فقد ملك الحصن وأنت ساه، وعاث فيه فسادا وأنت لاه. فغدا المريد وأنت المراد، وسلب منك العقل والفؤاد؛ (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر اللّٰه)، فإلى متى هذا النوم والسهاد وربك لك بالمرصاد؟

دم على مخالفة أهوائك

إذا اشتهيت الكلام فاصمت، وإذا اشتهيت الصمت فتكلم. ودم على مخالفة أهوائك (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله). و"من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه". وإذا استوى عندك الفعل والترك، فاختر الثاني لأنه أسلم ومبطل للدعوى ومقو لخصلة الحياء. ولن تستحيي ما لم تتبرأ، فما ثم إلا مدبر واحد، فافتح قلبك له يكن تدبيرك به وإلا هلكت.

اذبح حلقوم الهوى

اذبح حلقوم الهوى بسكين التقوى، ولا تنس الودجين؛ كي ينهمر دم الشهوات، فيغدو القلب أرضا لتنزل الرحمات وورود الواردات. ثم لا تسل عما تشعر به الروح من نعيم ولذة فاقت اللذات. ولا غرو إن حصل تجافيها عن الجسد، بعد أن اشتاقت إلى العروج، وداعبها حنين الوطن الأول.

إياك والاستدراج

علاك موج كالظلل فاستنجدت بالله فأنقذك، ثم همت في ظلمات بعضها فوق بعض فدعوته فخلصك، كم ذا يحسن وتسيء، وينعم وتكفر؟ حذار أن يغرك ركود بحر النفس، فقد يعود ما دهاك بالأمس، ويباغتك موج أهول من السيل بالليل، وتبلغ الروح الحلقوم، ويعرض عنك الحي القيوم، فتفترسك الحسرة وتلقى في السموم.

اجلد نفسك

تبرأ من نفسك فقد طغت، وبالواحد الأحد قد أشركت؛ إذ لهواها قد عبدت، وبأنعمه قد كفرت فما شكرت. وإن لم تفعل فستندم يوم تقول: "يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين". فاجلد نفسك مائة جلدة بسوط اليقين، فقد "زنت". واحيها بالقصاص؛ "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون". وإلا فانتظر القصاص وما أدراك ما القصاص.

لا تكفر النعمة

ذقت رحمته فانبسطت وما شكرت، ثم نزعها فيئست وما صبرت، بل كفرت وجحدت، ثم أعرضت وأبقت، ونسيت أنك عبد لا رب لك سواه؛ (إن كل من في السماوات والأرض إلا آت الرحمن عبدا)، وأنك مملوك في مملكة الديان حيث نسعد مطيعا ونشقى آبقا.

تذكر فوات الخير

هيهات التخلص من الهلع والنجاة من الفزع، لقد فاتك الخير وسبقه الشر، وأطعت الهوى والشيطان، فألقياك في اليم مخبولا ولهان. أما تدري أنك خلقت لعبادته ؟ وأمرت بالصلاة لذكره، وبالصدقة لشكره وحمده؟ فافزع إليه ينكشف الفزع مما سواه، واخلع هواك تفز بهداك.

اطرد الشهوات

علا صدرك دخان الشهوات، وأثقل كاهلك حمل السيئات، وتمردت نفسك فلم تعتبر بماض ولا اتعظت بما هو آت، فحيل بينك وبين قلبك، وهمت على وجهك في الفلوات (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون). التمس نور الزهد وبدد أستار الظلمات، تظفر بالعقل والتمييز وأسمى الإرادات، وتحظ بالقرب واليقين والرضا وأرقى المحبات. وفي الحديث: (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس).

تجرد عما يقطعك

تجرد من نسيج أوهامك وغزل شهواتك، وأحرم بتوبة من غير ميقات، وطف ببيت التوحيد، وتعلق بمعاني الصفات الإلهية، واسع بين الخوف والرجاء؛ بدءا بالأول وختما بالثاني، واستمطر الرحمة من فوق جبلها، وتعرف إلى الرحيم معرفة لن تشقى بعدها أبدا: (... اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت لهم...). ومثل نفسك إسماعيل الذبيح، واقطع بسكين الصبر واليقين حلقوم النفس الأمارة والودجين، كي ينهمر دم الغفلة والشهوات فتنجلي لك الآيات.

اختبر نفسك

إذا اعترضت محابه سبيل محابك فانزعجت نفسك واستعجلت هواها، فاعلم أنها كاذبة إذ المحب للحبيب مطيع. ولو أنها استجابت لأوامر ربها و سارعت إلى مرضاته: "وعجلت إليك ربي لترضى". لظفرت بحلاوة إيمانية عظيمة ولذاقت لذة روحية زهدتها في سائر اللذات ولله في خلقه شؤون .

صم عن شهواتك

صم في الدنيا عن شهواتك، لتفطر في الآخرة على رحيقك ولذاتك، وتخلص من سجنك وقيود نفسك كي تعانق فطرتك وفضاء روحك. واعلم أن تسخيرك لنفسك لن يتحقق إلا بالصوم المذكور فعجل بذلك لأن عجلة الزمان تدور وزمانك طوع يديك إذا لم تثاقل نفسك إلى الأرض وتبادر إلى العبور

كيف يتحقق السفر إليه

طرقت الباب فقيل لي: ارجع من حيث أتيت، فافترشت التراب واستلقيت، ثم توسدت بخدي العتبة وبكيت، فنادتني هواتف الروح: تجرد من تاج الهوى وطيلسان النفس الأمارة، وطواغيت الشرك، والبس رداء الذل والافتقار وقميص الخوف والاضطرار وقتئذ يفتح الباب على مصراعيه، ويتحقق السفر منه إليه، ويحلو الذكر والمناجاة، ويحصل مالا تترجمه العبارات.

ارض بالله ربا

لن تذوق طعم الإيمان ما لم يتجاف جنبك عن مضجعك، ونفسك عن شهواتك، إذ (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)، ولا لعبد قبلتين لعبادته. فكيف تعبد إلهين اثنين: إلهك وهواك ؟ ! وهو لا يغفر أن يشرك به ؟ وتتوهم وجود كعبتين (وكل في فلك يسبحون)، وحول كعبة يحومون، والملائكة من حول العرش يحفون، يسبحون لا يسأمون.

عليك باليقين

الشمس على أطراف النخيل

لا تغتر بضوء الشمس فقد كسفت وهي على أطراف النخيل، والزمان قد انقضى نهاره ودخل ليله، وأوشكت شمس لا تغيب بالشروق، جدد إيمانك وتوضأ بماء الحياة من عين طاهرة، وامكث على ذلك لعلك تحظى بما لا يخطر على بالك، فقد يصيبك الله برحمة لا تشقى بعدها أبدا، وقد يعرفك بذلك لأنه يبشر من يشاء من عباده. وإذا مستك تلك الرحمة قد تشعر بفتور في أعضائك وجوارحك وميل إلى الصمت، وأصل ذلك لذة باطنية أنستك ما سواها من اللذات، فإن دامت فنعما هي وإلا فما مستك رحمة؛ " ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها".

من الكون إلى اليقين

إذا أحالك الكون على المكون وخشعت ذاتك، كانت رؤيتك و استماعك بالحقيقة، وتحققت باليقين واطمأن قلبك. وإذا وقفت مع الكون، قوي ظمأك، وفقدت الخلافة، وحالت طينتك دون إدراك الحقيقة. واليقين يورث الحياء والخوف، وإلا فأنت تضرب في حديد بارد. ألم تر أن يوسف عليه السلام لما رأى برهان ربه خاف ولم يقدم على ما هم به. ولكل شيء ظاهر وباطن. ولن تدرك الباطن إلا بعينك الباطنة، فاجتهد أن تكون على بصيرة من ربك.

عليك باليقين

أنت ميت وتحسب نفسك حيا، وحياتك من نوره "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها"، ونوره من اليقين، والموت أول مراحل اليقين؛ "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين". فأكثر من ذكر هادم اللذات كي تحظى باليقين، وينشرح الصدر وتنعم باليقظة، وتستشعر غربتك الدنيوية، وتتنسم عبير الحياة الأبدية. فتقرب إلى الله واسجد له بقلبك آخر سجدة، ولا ترفع رأسك منها أبدا، وصل صلاة مودع.

عليك بالإحسان

اعمل وظن بالله خيرا وبالنفس شرا، وانشد اليقين حتى يستهين قلبك بما استثقلته نفسك، وتعمل على المعاينة، كالعبد في الدنيا أمام سيده، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وإن أعوزك اليقين تملت عليك العبادة، وحرمت السكينة، وفاتتك لذة القرب.

ارفع الحجب باليقين

رأيت الجنة بعيني نبيي فأحسست ببرد اليقين، وعاينت النار بهما فتعوذت منها ومن أهلها الخاسرين. فالجنة قد أزلفت، والنار قد سعرت، والمعاين نبيك، وبصره بصيرتك، وإلا فقد حيل بينك وبين نوره، وعند كشف الغطاء، يتميز الحق من الباطل والنور من الظلماء.

ارتو بماء اليقين

اطلب اليقين كي تقذف في عين الحقيقة، كما ألقي السحرة ساجدين، ولن يضرك بعد ذلك شيء، ولسان حالك: (إنا إلى ربنا لمنقلبون). والتمس منه ربط القلب كما ربط على قلوب الفتية: (إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها)، وعلى قلب أم موسى: (لتكون من المؤمنين)، ثم لن تستوحش مما يستوحش منه الغافلون، ولن تأنس إلا بما يأنس به الواصلون.

استحضر الموت

أقم قيامتك

إذا تذكرت الواقعة، وبرق البصر، وخسوف القمر، ولم يصبك خدر، ولا وجدت أثرا في باطنك، فما حصل لك اليقين بالمشهد الرهيب. أقم قيامتك قبل يومها، واستحضر مشاهدها قبل أن تباغتك، واجمع غدك بيومك وما ثم غير يومك. وإذا صح منك التقرب أعطيت سر العبادة، ونلت حلاوة المناجاة، وغشيتك السكينة، وكتبت في ديوان المقربين، ومن ذاق لذة الوهب لا يفرح بالكسب.

احيى حياة مودع

"صل صلاة مودع"، وأكل أكل مودع، واشرب شرب مودع، واحي حياة مودع، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح. وإذا لم تودع الدنيا بمحض إرادتك، ودعتك وأنت كاره، فاحرص أن تكون المودع لا المودع، والفاعل لا المفعول، والمنتصر لا المخذول.

يا لهول المطلع

أزفت الآزفة، وصخت الصاخة، وأدبرت الدنيا وأقبلت الآخرة، وأنت في شأن آخر، كأنك غير مطلوب ولا مخاطب؛ "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون". كلا لتقفن بين يدي العزيز ويا لهول المطلع، ولتفترسنك الندامة ويا لسوء المصرع، ليت أمي لم تلدني أين المفزع ؟

جن ليلك

جن ليلك وأظلم، وانقضى نهارك وانصرم، لم تجد آياتهما إلى قلبك سبيلا، ولا استطاعت أن ترتل كلماتها على سمعك ترتيلا، ولا أن تناجيك فتحدث في باطنك لذة ونعيما ومشهدا جميلا. ما أقسى قلبك، وأ صم سمعك، وأعمى بصرك وبصيرتك!! فكأني أنظر إلى يوم القيامة وقد "عنت الوجوه للحي القيوم"، ومزقت القلوب الحسرة والندامة، "وقيل بعدا للقوم الظالمين".

استحضر القيامة

أزعجتك المصائب وأقضت مضجعك الفتن والنوائب، فضاقت عليك الأرض بما رحبت، وهمست إلى نفسك: ليت أمي لم تولد ولا ولدت. ولو استحضرت مصيبة الحشر والقيامة، وتأملت ببصيرتك هول الحسرة والندامة، لهانت عليك مصائبك، وتلاشت من حولك نوائبك، ولعلمت أن (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)، وأن الأقلام قد جفت والصحف قد طويت وآدم بين الطين والماء.

استعد للموت

الموت الموت، القبر القبر، كأني محمول على الأكتاف؛ مسوق إلى روضتي أو حفرتي. فيا ليت شعري هل من أنيس يؤنسني أو جليس يحدثني؟ أنا عملك الصالح فطب نفسا وتفيأ ظلالي، أنا عملك القبيح تجرع سما وكابد الليالي.

استحضر الحسرة الكبرى

موتك حياتك، وحياتك موتك، موتك لقاؤك ولقاؤك حسرتك؛ (يا ليتني قدمت لحياتي). نفسك تختنق وفي القبر قد تحترق، وفي النار قد تلقى، فبئس المثوى والمرتفق. وبئس قولك؛ (يا مالك ليقض علينا ربك). هيهات هيهات، مات الموت وفات الفوات.

سكرة الموت

شمس نفسك أشرقت يداعبها نسيم الأمل الطويل، وشمس الدنيا كسفت وهي على أطراف النخيل. والموت يقين لا شك فيه، غدا عندك شكا لا يقين فيه. لكن سكرته تبيد الغمام، وتحضر ما كنت منه تحيد. وتضع حدا لكل الآمال، وتلقي بك بين يدي من يفني ويعيد.

لا تفسخ البيع

كم ذا تطلقها صباحا، ثم تفتح لها الباب مساء ؟ كم ذا تبيعها نسيئة ثم تفسخ البيع في مجلسه ؟ أكلما طلقتها أرجعتها ؟ وكلما غزلت نقضت ؟ ما أسوأ ما فعلت. أتظنن الأمر هزلا ووجودك عبثا ؟ كلا؛ ليهجمن عليك الموت بسطوته، وليحطمن أضلعك بأضراسه. فالله الله في نفسك. ولكأني بالمنية قد أنشبت أظفارها.

ما لك من اختيار

عليك بالاضطرار فقد تقارب الزمان، وضاق الوقت، وأوشكت ساعة نفسك على التوقف ؛ (أمن يجيب المضطر إذا دعاه)، ولذ بالافتقار فلا ملجأ لك إلا هو؛ (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله)، وبادر إلى الفرار فقد سعرت النار ولفحك لهيبها ولما تراها؛ (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين)، واستنجد بالعزيز الغفار قبل أن يطلع النهار فيغشى ضوءه الأبصار وقتئذ تعنو (الوجوه للحي القيوم)، ويتميز الحق من الباطل والمؤمنون من الكفار

الجنة

الجبل الخاشع

نظرت إلى الجبل الخاشع فاهتز كياني، وخشعت جوارحي، فإذا بقلبي يستمع إلى تسبيح صخوره وهوامه وطيوره وأعشابه. فأحسست بوطأة التسبيح وصولة الخشوع، وحملني شعوري إلى عالم يجل عن الوصف والنعت، فنادتني الأشواق: اللحاق اللحاق، ارتحل المحبوب وحان وقت الفراق.

أجمل بيت

أجمل بيت أنت داخله جنة المأوى، حيث ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فطاب المقام وطاب المثوى. ذلك لمن سجد وعبد ونهى النفس عن الهوى وسلك سبيل الرشد، ولبس لباس التقوى. فليبشرنك ربك في دنياك، ولترتعن في النعم في أخراك فترضى، وهل جزاء من أحسن وقبل البيع إلا الحسنى ؟

مهر عرائس الجنة

أكشف غطاءك كي يحد بصرك، فتتجلى لك الآخرة في أبهى حللها. ثم تزهد في دنياك، فتدفعها مهرا لآخرتك. فإذا بعرائس الجنة تزف إليك ولما تفارق روحك طينتك. فالله الله يا عبد الله، كيف بك لو قبل المهر، وربح البيع، وسرى الخبر في أرجاء الجنة؟ "لمثل هذا فليعمل العاملون أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم".

مد يمناك إلى باب الجنة

الجنة أقرب من أن ترحل إليها، وحورها فوق فرشها وبأبواب خيامها أشد انتظارا لك من أم لابنها المفقود. والمهر طول التذلل والتجافي في جوف الليل (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، والمحافظة على العهد والميثاق، بعدها يطيب التلاقي، وينعم كل خل بخليله، وتقر أعينهم بعطايا مليكهم، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. ما أقصر عمر الدنيا مع أن الأمر أسرع مما أنت فيه، ولا فناء للآخرة وأنت تعض بنواجدك على الفاني. بئس ما عضت نواجدك وثناياك، وبئس وخاب المسعى مسعاك.

اعتنم نسمات السحر

نفحة علوية

زارتني سحرا نفحة علوية وسرى نورها في كياني، فأحسست بنشوة أطربت خلاياي ودعتني إلى مناجاة ربي، وإذا بي، والقلب قد امتلأ نورا وإشراقا، أطل من نافذة اليقين، وأنظر بعين البصيرة إلى درر ولآلئ من معاني الألفة الأصلية، وإذا بالآخرة قد أقبلت في أبهى حللها، وبالدنيا قد أدبرت كاسفة أنوارها، فسألت الله محبة الأولى وحسن تدبير الثانية

نسمات نزوله

إذا داعبت نسمات نزوله قلبك، وانشرح لها صدرك، وودع الكرى عينيك، فاعلم أن الله قد أمطر قلبك بسحائب رحمته، وأنزلك ضيفا عليه، وبادر بتودده إليك ومحبته لك؛ "يحبهم ويحبونه". فلا تعجبن لخفة روحك ولهج لسانك بذكره ولما تفارق مضجعك. لقد دعاك لقيام ليلك، وتزكية نفسك ومهجتك، فهو الفاعل وأنت المفعول، وإن كنت الذاكر وهو المذكور؛ "هو الذي حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم" .

لمة الملك

إذا انتبهت من نومك على صدى آيات من الذكر، أو ترجيع الآذان، أو "استجب لما يحييك"، أو ما شابه ذلك، فاعلم أن لمة الملك قد طافت بك، وأنك مدعو إلى مأدبة الرحمن. فانشط من عقالك، وبادر إلى ما يطهرك ويزكيك، وشد مئزرك وأحي بقية عمرك، واستدرك ما فاتك. فإذا أصبحت فصن طرفك عن رؤية ما يفسد عليك حالك، وصن خاطرك عن التفكر فيما يحجبك عن ربك. وانذر للرحمن صوما عن الدنيا كي تفطر على الرحيق المختوم وشراب السلسبيل.

ناشئة الليل

كم من متزمل راقد ليله لم يقرع النداء أذنيه، وكم من غافل صير ليله نهارا وعصى ربه جهارا. اهجر مضجعك واسهر حينا من ليلك في مناجاة ربك قبل أن يكشف عن ساق ويتعذر السجود. إن لك في ناشئة الليل نفسا أصفى، وذهنا أوعى، وقلبا أخشع، وصدرا أوسع. فإذا هدأت الأصوات، وانقطعت الحركات، توجه إلى خالق الكائنات، واجعل في قلبك للرحمات سبيلا، عسى أن ينفعك ذلك يوم يأخذ العزيز الظالمين أخذا وبيلا.

احذر الدنيا

أنب إلى ربك

اقلب وأنب إليه، واسجد واركع له وحده تسلم. وهب حياتك وموتك له تغنم، وإلا فالنكد والعذاب؛ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق). فالله الله، احذر المكان السحيق لا أنت عبد فيه ولا طليق.

حياتك في الدنيا

حياتك في الدنيا زرع وبذر، وفي الآخرة جنى وحصاد، فعليك ببذر الخير والتزود ليوم المعاد، وتجنب بذر الشر فربك بالمرصاد، والخير يدوم ويبقى ويخلد أبد الآباد، والشر في الدنيا يبلى ويفنى فما أشبهه بالرماد؛ "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد" .

احذر زهرة الدنيا

راودتك الدنيا عن نفسك فاستجبت لها، وأماطت عن محاسنها الخمار فذهلت بها، وأسرت إليك بحديثها الساحر فأصغيت لها. كلا، لا تحجبنك "جنة" الدنيا عن جنة الآخرة، ولا الدار الفانية عن الدار الباقية، وشتان ما بين الفناء والخلود، وما بين العدم والوجود، وما أقرب يومك من اليوم الموعود.

اختتم الأسحار

أشرقت الأنوار وتفجرت العيون والآبار وتنزلت الأسرار مع نزول الملك الغفار وخوطبت في الأسحار: "هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له...". لا أحد في الدار ولا من يرغب في الأذكار أو يرجو الاستغفار: (صم بكم عمي فهم لا يرجعون). زهدت النفوس في عرائس الآخرة، وفي قوله: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)، فبئس الزهد وبئست الكرة الخاسرة.

زهرة الدنيا خضراء الدمن

زهرة الدنيا خضراء الدمن، فلا ترن إليها بطرفك فيأسرك جمالها. وزهرة الآخرة منة المنن، ساقها في باطنك حيث فطرتك، ورأسها في مستقره حيث جنتك. واعلم أن حبك للأولى يسلبك زمانك ويفنيك، وأن حبك للثانية يحييك في زمانك ويبقيك، فلا تزال تترقى حتى تفنى إرادتك في إرادته سبحانه ما أجمله.

اطلب دار البقاء

طلق العجوز الشمطاء، واخطب ود العروب الحوراء، واهجر رجز دار الفناء، واصب إلى نعيم دار البقاء. فقد سرى الركب ليلا وأنت نائم، وطوى المراحل بالذكر وأنت هائم، فإلى متى نظل مغلولا مقيدا وقد أرادك الله عبدا مخلدا.

أين الفاني من الباقي

تقرب إلى الواحد الأحد، وعانق ساحل الأبد، ولا تقف مع اليوم، فقد أخنى عليه الذي أخنى على لبد، ولكن انظر إلى غد. فمثلك لا يرضى بالدنيا مقاما، ولا يكن لنعيمها حبا ولا غراما. فأين الفاني من الباقي، وأين الثرى من الثريا، وأين النعيم بلا نعيم من نعيم لا يفنى، وأين الملك بلا ملك، من ملك لا يبلى؛ حيث ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ونطيب اللقيا ؟!!

كسر أصنامك

كسر أصنامك تبد لك أسرارك، ولذ بالرحمان تفز بالإحسان. أبناء جلدتك عكفوا على الأصنام وزينوها ووضعوا لها الأرقام، وحلت عندهم محل خالق الأنام، ومنها المحسوس والمخيل، والثاني أظلم لتعلقه بالوهم، وكلاهما سراب لأن ما خلا الله باطل، "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور". لا تلتفت إلى الأصنام فتصيبك السهام، وتبرأ منها وممن يطوف حولها، واحتم بصاحب الحول سبحانه ما أعظمه.

لا تفرح بموجود

لا تفرح بموجود ولا تحزن على مفقود؛ "لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آ تاكم"، واعلم أن الله خلقك له؛ "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون". فلا تجعل نفسك لغيره فتشقى وتعذب؛ "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى". واعلم أن الموجود من الفانيات خلق لك ولم تخلق له، فلا تفرح لتملكه، ولا تحزن على فقدانه فتلحق الأذى بجوهرك.

افسخ بيع الغبن

اخرق سفينة دنياك كي تعيب، فيزهد فيها جنود النفس الأمارة، فتأمن شرهم، فيخلو لك الطريق، ويرق الحجاب. وأصلح سفينة آخرتك، فلا دار إلا دار الآخرة، ولا حرث إلا حرثها، وافسخ بيعك لها قبل فوات الأوان، فقد غبنت، ورد المال الفاسد إلى صاحبه. كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها.

اقتد بنبيك

تأس بالمصطفى (ص)

اقذف بحق الروح على باطل النفس فإذا هو زاهق، وتأس بالمصطفى وعبد طريقك ونقه من أثر كل شيطان مارق، وتبتل إلى الحق تبتيلا ولا تحفل بالكرامات واللوامع والبوارق، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتحجب بالشهوات عن المناجاة وبالخلق عن الخالق. "وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون". وانبذ وساوسهم وفلسفتهم، وع بالنواجذ على كلام الصادق، واسلك سبيل أهل الصلاح والزهد والرقائق.

لا تغرنك الأوهام

ما لك فتقت ما كان لم يزل رتقا، ورمت بذلك قلب الباطل حقا، وزعمت أن الدين حقيقة وشريعة، وظاهر وباطن، والحقيقة لباب والشريعة قشور!! أما وسعتك عقيدة التوحيد وصفاؤها، وسنة المصطفى صلوات الله عليه وضياؤها. حذار أن تستدرجك الأوهام والخيالات، واللوامع والإشراقات، والبوارق والضلالات، فتمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

تحرر من رغبات العاجلة

لا ترغب عن ملة إبراهيم فتشقى، ولا ترغب بنفسك عن نفس نبيك فتضل. واجمع رغباتك في المرغوب الأحد، تسعد في الدارين إلى الأبد. واعلم أن تحررك من رغبات العاجلة يقوي يقينك ويحبب إليك نعيم الآجلة، وأن لهثك وراءها يضنيك، ومن الظمأ ما يرويك. واعلم أن شمسك قد أوشكت على الطلوع من مغربها، وأن ساعتك قد بدت كاشفة حجابها. فأين قلبك من وطأتها وهولها، وما أنت قائل لربك وربها ؟

احفظ الله

مطلبك الوهم

إذا التفت عنه فأنت في غير مطلب، وأضحى مطلبك الوهم لأن ما سواه باطل. واعلم أن كل لذة فانية إلا لذة تصلك بوجهه، أو بصفة من صفاته. ومن ذاق حلاوة القرب زهد فيما سواها. وحلاوة القرب تدوم، والأخرى لا تلبث إلا عشية أو ضحاها.

رزقك يطلبك

الرزق مقدر فلم الهلع، والدنيا فانية فلم الطمع، والموت نازل، والواقعة واقعة، والقصاص حاصل، فبم الفرح؛ (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).

احذر عدوك واعتصم بالله

أنت طيب وعلى الفطرة والحنفية السمحاء، فلا تترك الشياطين تجتالك، فتتلف فطرتك ثم تغتالك، وتلقي بك في جهنم أهذا مآلك ؟! لا والله؛ التجئ إليه، واعتصم به، واستمطر رحمته، ينزل على صدرك ماء يسري إلى قلبك الظمآن، فينبت نبات التقوى بإذن ربه، فينقشع الغمام، وتحيا جوارحك وخلاياك، ويصفو لك الجو فتتمنى اللقاء.

استمع للكلمة

في البدء كانت الكلمة "كن"، فكانت الأكوان وما شاء الله أن يكون؛ "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون". استمع إلى صدى "الكلمة" في الأرض والسماء، بل في نفسك وبين جناحيك "وفي أنفسكم أفلا تبصرون". تدبر "كن" وسريانها في الكون، ولا تحجب عن المكون، وعلق الفعل بالفاعل والكلمة بصاحبها. قل كلمتك ولتكن طيبة؛ "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة"، واستمد قوتك من روح الكلمة الأولى، واستعن بالقرآن حيث جلال الكلمة والمتكلم، ونور المعنى في جمال المبنى. وإذا لم تنهل من مشكاة كلامه فقد حيل بينك وبينه، وعلا الوقر أذنيك، وانتفى صدى الكلمة في جوانب نفسك؛ "لهم آذان لا يسمعون بها". قل كلمتك وكن صادقا، تجد أثرها في نفسك وفيمن حولك. ومن صدقت لهجته ظهرت حجته، وأفضل القول ما اقترن بالفعل. قل كلمتك وكن مريدا، فالكلمة من الكلمة، والإرادة من الإرادة، ولا حول ولا قوة لك إلا به، سبحانه ما أعظمه.

الله أكبر

الله أكبر نقطة بدايتي ونهايتي ونور هدايتي إلى فطرتي. الله أكبر حصني وملجأي وفرحي ومناي، وعقال نفسي وغذاء روحي. الله أكبر فرجي من كربتي، ونجاتي من شهوتي، وسلاحي على أعدائي، ونصري في معركتي. الله أكبر سر توبتي وأوبتي، ونفق مراقبتي ومحاسبتي، وعدتي في مجاهدتي. الله أكبر مفتاح صلاتي وركوعي وسجودي وذكري وتسبيحي.

الله أكبر من السماوات والأرض فلا تعجبن، وأكبر من هول القيامة وزلزلة الساعة وذهولها فاثبت، وأكبر من بلوغ الروح الحلقوم والتراقي فظن به خيرا، وأكبر من مرضك وفاقتك وهمومك، فلا تيأسن، وأكبر من خوفك وأمنك، وحزنك وفرحك، وفقرك وغناك، وضعفك وقوتك، ومعصيتك وطاعتك، فلا تزيغن، وأكبر من صبرك وشكرك، وبرك وإحسانك، وذكرك وعبادتك، وخشوعك، فلا تغترن، وأكبر من نعيم الذكر وبرد اليقين، وحلاوة الأنس، ولذة المناجاة، وبوارق المكاشفة، فلا تقنعن كي لا تحجب، والتمس المزيد وأن إلى ربك المنتهى.

الكعبة قبلتي

نظرة إلى الكعبة

نظرت إلى الكعبة نظرة أشرقت لها روحي، واهتز كياني، وطرب قلبي، ورقصت خلاياي، فشق علي مغادرة المكان من شدة الأسر ووطأة الحال. فما أعذبها من لحظات، وألذها من إحساسات، وأسناها من إشراقات. فكأني باليقين قد بلغ مداه، حتى لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، وبالشوق قد حقق مناه. فما كان مني والحالة هاته إلا أن عاهدت ربي على ما عاهدته عليه، عسى أن أكون بذلك شكورا.

اسكن أول بيت

لا تسكن في مساكن الذين ظلموا، ولا تسكن في بيت بنيته ورفعت قواعده، فقد ينصدع أو يخر عليك سقفه، واسكن أول بيت وضع لك تظفر بالهدى والبركة، وتنعم بالأمن وتشملك الرحمة وتتجلى لك الآيات البينات، واسأل اللهَ استضافتك. وإذا لم تطأ قدماك فناءه ولم تستطع إليه سبيلا، فاملأ قلبك بحب رب البيت وعظمه، فكم من حاج لم يحج، وكم من قاعد حيل بينه وبين ذلك، قد نال رضا اللهِ وعفوه.

تغشتك ليلة عرفات

تغشتك ليلة عرفات فلا أثر، وأظلك يومها الندى فلا مطر ولا عبر، فأرض نفسك جذباء قاعا صفصفا ما الخبر؟ ضيف طاف بك فأقليته، وتعرف إليك فأنكرته، فأنت لحقيقة نفسك أشد إنكارا. اجعل أيام عمرك عرفات، ترفع حجب نفسك، وترنو بعين قلبك إلى الغرفات، وإلا فقد علا الران ووقع الختم، وحيل بينك وبين خالقك لأن "اللهَ يحول بين المرء وقلبه".

عليك بالقرآن

القرآن يخاطبك

إن القرآن خطاب رباني موجه إليك، فافتح قلبك له، واخشع في تلاوته لعل الله يلهمك بعض أسراره. وإذا لم يحدث في باطنك خشوعا أو طمأنينة، فما وقع الخطاب على قلبك، وما وعت أذنك: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله). فاحرص على أن تجعل رؤيتك بعين البصيرة للمشاهد الغيبية من جنة وملكوت، كرؤيتك بعين اليقين للمشاهد الدنيوية، لعل ذلك ينفعك في التقرب إلى الله.

أيقظ بصيرتك

إذا استمعت إلى كلام الله ولم تتعظ فأنت أصم. وإذا نظرت إلى آياته في نفسك والكون ولم تهتد فأنت أعمى. واعلم أن الصمم صمم القلب والعمى عماه: (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)، وأن النور واليقين في الوحي، والشك يعتري ما سواه: (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين).

الضنك الضنك

أعرض الإنسان فانقلب الزمان، وفسد المكان؛ (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس). وأشرك الجنان، فانحرف اللسان، وضاع البيان. وهجر القرآن، فعودي الرحمان، ومات الإنسان؛ (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها). إقرأ القرآن، ولذ بالرحمان، تمنح البيان؛ (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان).

انهل من حقائق القرآن

أخراك أخراك، وما ثم غير أخراك. دنياك دنياك، ولا وجود لدنياك؛ "ياليتني قدمت لحياتي". وصدقت الدنيا إذ تقول: أنا بنت الآخرة ألا تسمعون؟

هيهات، هيهات؛غلفت القلوب وصمت الآذان. عانق بروحك حقائق القرآن، وتذوق معانيه الفياضة، تحملك آياته إلى أخراك، وتستيقن أنك لم تزل فيها وما كنت قط في غيرها. فتدارك أمرك قبل كشف الغطاء.


ابتهالات

إلهي؛ أسألك أن تلقي علي محبة منك، وتفتح لي من رحمة لاممسك لها، أصبح وأغدو وأمسي متفيئا ظلالها حتى ألقاك.

إلهي؛ أنت الذي هديتني، وأنت الذي أرشدتني، لكن من عساه يؤمنني مكرك، أو ينقذني منك يوم تبطش البطشة الكبرى. لم يكن إبليس من الطائعين، أعوذ بك منك، لا ملجأ منك إلا إليك. لعلي أعمل في غير معمل، أو أحسب أني أحسن صنعا، إن لم تأخذ بناصيتي ضللت، وإن أوكلتني إلى نفسي هلكت. من علي بالطمأنينة، واربط على قلبي كما ربطت على قلب أم موسى، أو قلوب الفتية؛ "إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا"، حسبي أنت، حسبي أنت، حسبي أنت.

إلهي؛ أسألك أن تعصمني في حركاتي وسكناتي وخطراتي، وأن تسبل علي كثيف سترك، حتى تغيب عيوبي عن عيون خلقك، كي أذكرك في نفسي فتذكرني في نفسك.

إلهي؛ أسألك أن تعينني على اقتفاء أثر الرسول محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وأن تضئ جوانب قلبي بشعلة من نور سراجه الوهاج. وأسألك أن تقذف في قلبي نورا من عندك، يزيح شبح الظلمات، ويبدد أستار الأوهام؛ كما تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

إلهي؛ أسألك أن تجعلني أعبدك كأني أراك، وإذا هممت بفعل سوء أو مسني طائف من الشيطان، تذكرتك فخفت مقامك. واملأ قلبي بخشيتك حتى لا يبقى فيه خاطر سوء قد يغضبك، وحتى لا تتحرك جوارحي إلا بما يرضيك، واجعل الوقار ثابتا في أصل فؤادي، واجعل الصمت إلا عن ذكرك وفيما تحب أفضل شيمي.

إلهي؛ أسألك أن تحبب إلي عبادتك، ومناجاتك والأنس بك. فإذا أظلم الليل ولمع النجم وسكنت النفوس؛ اجعلني ممن تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وممن يهجرون الفراش متأسين بنبيك ومقبلين عليك، عسى أن ينفعني ذلك يوما يجعل الولدان شيبا.

إلهي؛ أسألك أن تجعلني في زمرة الذين بايعوك، فعلمت ما في قلوبهم فأنزلت السكينة عليهم، فسكنت نفوسهم وهدأ عنهم الروع، وثبت إيمانهم ويقن، حتى غدت كل حركاتهم وسكناتهم بك ومنك وإليك.

إلهي؛ اشتقت إلى لقائك، وحيرني حنين الرجوع إليك. فاجعل سفري إليك سفر نوح في الجارية، ولجوئي إليك لجوء الفتية إلى الكهف، واجعل لي عندك زلفى وحسن مآب.

إلهي؛ لطفك وعنايتك بي، جعلاني أوقن بأن كل شئ في هذا الكون يسبح بحمدك، وكل حي وكل جامد له لسان يسبح به، وما من موجود إلا

والتسبيح ساري في كيانه؛ إذ ليس في الوجود إلا معبود ومسبحون. فامنن علي بلسان لا يفتر عن تسبيحك، وقلب لا يسأم معلقا بك، لعلي بذلك أحقق عبوديتي لك.

إلهي؛ أسألك سؤال من غشيه الموج وظن ألا ملجأ منك إلا إليك؛ أن تجعلني أفر إليك قبل أن يفر مني أخي وولدي، وأمي وأبي وكل عشيرتي، يوم مجيء الصاخة، يوم العرض، وقد خاب من حمل ظلما. إن لم تفك أسري من شهوات نفسي، لم تنقذني من أوحال الدنيا، لم تتغمدني برحمتك، فكيف لي أن أفر إليك وقد قلت (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين). كن بي رحيما ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

إلهي؛ أعرضت عن أصنامهم التي هم لها عاكفون، وأقبلت بوجهي عليك فأقبل بوجهك العزيز علي، واجعلني أنظر إليه ببصيرتي، وأدم علي نورك حتى لا أضل وأشقى، أو تهوي بي الريح في مكان سحيق.

إلهي؛ طغى الماء أو كاد، ولست خبيرا بصنع الجارية العاصمة، فألهمني بناءها وإلا كنت من المغرقين، وارزقني براءة مثل براءة هود أخي عاد، إذ قال لهم (واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه). وامنن علي ببينة منك تطمئن بها نفسي، ويقوى بها عضدي. وبشرني يا وهاب بهبة من عندك تسرني، وترفعني بها، واجعلني ممن قلت فيهم؛ (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة). آمين

إلهي؛ إذا صح أن عبادا ممن ذاقوا حلاوة الانقطاع إليك، شق عليهم الاشتغال بأمور تتعلق بمعيشتهم ودنياهم لا مفر لهم منها، لما في ذلك من تشويش لصفو الأنس، فكيف ستكون حالتهم إن أنت أدخلتهم النار؛ لأنك مقلب القلوب، وحرموا رؤيتك وقد تقطعت أوصالهم شوقا إليك ولما يروك .أتوسل إليك بما تحب أن يتوسل به إليك، أن تثبتني وإياهم وتسكننا جنتك، وتقر أعيننا برؤية وجهك الجميل.

إلهي؛ هما نظرتان لا ثالثة لهما؛ نظرة إلى الدنيا ونظرة إليك. فمن أسرته الأولى، تحسر على الثانية يوم يكشف عنه غطاؤه. ومن منحته البصيرة وكان على نور منك، كفي سحر الدنيا وعجل إليك لترضى. فيا من يجيب المضطر إذا دعاه، أسألك بحق النور الذي أضاءت به الكون، أن تجعلني أحيا على بصيرة حتى ألقاك آمنا يوم الفزع الأكبر.

أنشودة الذكر

ذكري نَفسي نَفسي ذكري؛ "سبق المُفَردون"

ذكري سكينتي، ذكري أمني، "ويُتخَطف الناس من حولي

ذكري سياحتي، ذكري تأملي؛ "ويتفكرون في خلق السموات والأرض"

ذكري حريتي، ذكري إرادتي وعزيمتي، ذكري استجابتي لما يحييني؛ "استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم"

ذكري عمارة قلبي، ذكري غراس جنتي؛ "سبحان الله وبحمده"

ذكري دوائي من أسقامي، ذكري سلاحي في نحر عدوي؛ الوسواس الخناس.

ذكري جنتي؛ عدني وفردوسي؛ "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"

ذكري جلاء همي وحزني، وحياة روحي ونور قلبي؛ يسعى بين يدي، ويضيء ما حولي؛ "يهدي الله لنوره من يشاء"

ذكري يقظتي من غفلتي، وتوبتي من خطيئتي، وزوال غشاوتي عن مهجتي؛ "وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور"

ذكري نَفسي، نَفسي ذكري؛"أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتكبير كما تُلهمون النفس".

ذكري غذائي، ذكري رحيقي، ذكري شرابي من سلسبيلي.

ذكري لذتي، ونعيم قلبي؛ ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل.

ذكري أنيسي في خلوتي، ورفيقي في جلوتي: "أنا جليس من ذكري".

ذكري قائما، ذكري قاعدا، ذكري على جنبي، وفي جميع أحوالي، وأتفكر في خلقه، وأجني العنب من الدوالي.

ذكري يحجبني، ذكري يقيني غيبتي ونميمتي، ولغوي وغفلتي، ذكري يذكرني إذا طاف بي شيطاني؛ فإذا أنا مبصر.

ذكري قناعتي، ذكري رزقي وغناي، ذكري وقايتي من فقري وفاقتي؛ "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين".

ذكري خادمي، ذكري معيني؛ ييسر عسيري ويذلل صعابي؛ "لا حول ولا قوة إلا بالله".

ذكري أفضل أعمالي، وتاج أقوالي، ونور أفعالي

ذكري أكبر من صدقتي، ومن بري وإحساني، ومن حجي وعمرتي؛ "ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون".

ذكري مداد قلمي، وروح كلماتي، ونور بصري في قراءتي، ومرشدي في مذاكرتي، وباب معرفتي. والذكر بالتذكر، والعلم بالتعلم، والله يحيي القلوب بالذكر والحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء.

لا إله إلا الله: لسان الكون والوجود

لا إله إلا اللهُ: ذكري وذكر أنبيائي ورسلي: "أفضل ما قلت أنا والنبيئون من قبلي يوم عرفة: لا إله إلا اللهُ".

لا إله إلا اللهُ: حديث قلبي، وطرب نفسي، ومعراج روحي: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه".

لا إله إلا اللهُ: قبلة عبادتي، ومحور تفكيري، وجوهر وجودي ومصيري: "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له".

لا إله إلا اللهُ: شرعتي، ومنهج حياتي، ومفتاح سلوكي، ونور هداي، ومصباح طريقي: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا".

لا إله إلا اللهُ: تفجر قلبي عيونا، تسري في كياني ألحانا، فتغدو خلاياي لسانا، ثم ينساب رحيقها في فمي ولساني: "تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن... وإلا فالباب مغلق" (الحسن البصري).

لا إله إلا الله، أستفتح بها يومي وتباشير صباحي؛ "أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله، لا إله إلا الله".

لا إله إلا الله، أتفيأ بها ظلال غدوتي، وأستقبل بها نسيم مسائي؛ "أمسينا وأمسى الملك لله، لا إله إلا الله".

لا إله إلا الله، شجرة توحيدي، أصلها ثابت في صميم قلبي، وفرعها ممتد في سماء وجودي، يسبح الله في كل حين، ويصلي على أحمد الأمين.

لا إله إلا الله، أدك بها أصنام نفسي، وأنفي بها شهواتي وأهوائي، وأثبت بها وجود ربي وإلهي.

لا إله إلا الله، نفي وإثبات في الحياة وبعد الممات.

لا إله إلا الله، أشير بها إليه، وأستدل بها عليه. فهي برهاني ودليلي وثبات قلبي ونور سبيلي.

لا إله إلا الله، أناجي بها ربي، وأخلو بها مع حبيبي، وأتأمل من خلالها نفسي، فإذا أنا والكون مسرحا لأنوارها، وفضاء لتجلياتها.

لا إله إلا الله، ألتجئ بها إلى ربي، وأطمئن بها قلبي، وأدفع بها كربي؛ "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا هو رب السماوات ورب العرش الكريم".

لا إله إلا الله، حبك في قلبي، وذكرك في لساني، فأين تغيب ؟

لا إله إلا الله، أناجيك لا أناجي سواك، فأنت القريب.

لا إله إلا الله، أذكرك ولا أذكر سواك، فأنت الحبيب.

لا إله إلا الله، بها يطيب التذلل، ويحلو البكاء والنحيب.

لا إله إلا الله، أستشفيك إذا مرضت لا أستشفي سواك، فمن غيرك الطبيب ؟

حرام على قلب

حرام على قلب ذاق حلاوة الإيمان، أن يلتفت إلى سواك.

حرام على قلب تنسم اليقين، أن يركن إلى الفانيات.

حرام على قلب أقلقه الوعيد، أن يتلذذ بالشهوات.

حرام على قلب يترنح بين آثار أسمائك، أن تأسره المسميات.

حرام على قلب رنا إليك بعين البصيرة، أن تحجبه المرئيات.

حرام على قلب يرجو الجنة ونعيمها، أن يتعلق بالأوهام.

حرام على قلب سيق إليك متذللا، أن يأنس بالأنعام.

حرام على قلب يرشف رحيق الذكر، أن يحفل بالأصنام.

حرام على قلب أيقظه ذكرك وحبك، أن يركن إلى النيام.

حرام على قلب........

المراجع

-أحمد أبو حاقة : "البلاغة والتحليل الأدبي"، ص : 249-295، دار العلم للملايين بيروت، 1988.

-ابن منظور : لسان العرب، ج 5، ص : 286 وما بعدها. ط. 3، دار إحياء التراث العربي 1999/1419.

-سيد قطب : "في ظلال القرآن"، ج 6، ص : 3356/ مطابع الشروق بيروت، ط 25، 1996/1417

-أحمد الهاشمي : "جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب"، ص : 353، -دار الكتب العلمية بيروت، 1983/1403.

-جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، "صفة الصفوة"، ج 1، ص : 136، دار الكتب العلمية بيروت، 1419 هـ/1999 م.

-محمد ابن قيم الجوزية : "الفوائد"، ص : 60، المكتبة العصرية صيدأ بيروت، 2002/1422.

-محمد بن قيم الجوزية : طريق الهجرتين وباب السعادتين دار الكتاب العربي بيروت ص222

فهرس الموضوعات


مطبعة تطوان
Imprimerie Tétouan

...وبذلك باتت مدونـة خواطر الشارف تشكل شقين: شق عِلْمُه عِلْمُ أهل التصوف أصحـاب الباطـن، وشق عِلْمـُه عِلْمُ أهـل الشـرع أصحـاب الظـاهـر. وحقـا أن الشـارف كتـب رقائقـه الأولى في ظـل تجربتـه الصـوفيـة بأفكارها ومعتقداتها، وكتب رقائقه الثانية في ظل الكتاب والسنة. ومع هذا وذاك يستوقف القارئ تقاطعات في موضوعات رقائـق الشـارف تطالعـك في غير نصوص، فترى خواطر توحيد تَتَخلَّلُها نفسـات صوفيـة، وتـرى خواطـر تصوف تغشاها نفحات عقدية.

وإنك لهذا لا تملك وأنت تقرأ من خواطر الدكتور الشارف المُجَوَّدة إلا أن تشهد له كما شهدت ببراعته في صوغ معان زهاها الحُسْنُ بما أشرقت به من نصوص القرآن الكريم وجوامع السنة المطهرة، ومبانٍ سلس أسلوبها ورَقَّ بما كُسِي من جمال يحفل به القراء وتدوم له المحمدة.

من تقديم الكتاب

الثمن: 25 د